المنهج السلفي

معالم
على طريق الدعوة والتمكين

تأليف

عاطف عبد المعز الفيومي

مكتبة طريق المصلحين

المنهج السلفي

معالم

على طريق الدعوة والتمكين

تأليف

عاطف عبد المعز الفيومي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

يطلب الكتاب من المؤلف

الهاتف المحمول: ٠١١٣٣٨٦٩٧٥

البريد الإلكتروني: sheikhatef@maktoob.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله تعالى، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فالدعوة الإسلامية خير موضوع، لأنها دعوة الإسلام وحقيقته الربانية الكبرى، وهذه الدعوة اليوم أذن الله لها أن تعود من جديد بقوة وإيمان، لتتبوأ مكانها الأول، وقيادتها للعالم الذي تنكب الطريق الحق، وذهب لاهثاً وبقوة وراء الشهوات والنزوات، والكفر والإلحاد، إلا بقية من أمة الإجابة والهدى أمة الإسلام، التي لم تراوح مكانها بعد لتتسلم مفاتيح القيادة لهذه البشرية اللاهثة خلف السراب، القابعة خلف الحجب والدنايا، لتدلها على طريق هدايتها وسعادتها، وسلامتها وأمنها.

ولكن ثم طريق طويل وشاق بين التكوين لهذه القيادة الرائدة للبشرية، وبين التمكين لها الموعود لها من الله تعالى في الأرض، نعم بدأت ملامحه تلوح في الآفاق، ودبت الصحوة الإسلامية في كل مكان، وبذرت بذورها لكنها لا تزال في حاجة كبيرة إلى العناية والمتابعة، في حاجة إلى التهذيب والتربية، وفي حاجة كذلك إلى التصحيح والتقويم، وفي حاجة إلى البصيرة والتبصير.

وكل ذلك لا يكون إلا بجهد الأمة ودعاتها الصادقين، وجنود الدعوة القائمين بها والمخلصين، وحماية هذه الدعوة وشبابها من أعدائها المنافقين والمتربصين.

ومن هنا كان لزاماً علينا أن نبسط بشيء من الكلام في هذا المحور الكبير الجليل [المنهج السلفي معالم على طريق الدعوة والتمكين في ضوء الكتاب والسنة] وإنه حقًا لموضوع يحتاج إلى جهود كبيرة ومخلصة، حتى تؤتى ثمارها بإذن ربها، ولا بد فيه بداية من الوقوف على أحداث السيرة النبوية أولًا، حتى ندرك الفارق بين واقعنا

المعاصر اليوم، وبين الدعوة الإسلامية في الغربة الأولى وكيف مكن الله لها بقدرته، وحتى نعلم بعد ذلك أين نضع أقدامنا، وفي أي الطرق نسلك السبيل إلى الله.

وهذه كلماتٌ من عميق القلب والروح، أهديها لأبناء أمتنا الإسلامية، أقدمها بأحرف من نور، بين جانبيها الخوف والرجاء معًا، فهي تحمل الخوف على أجيال الأمة من الانغماس في مستنقع الشهوات والترف، والإعراض عن سبيل الهداية والرشاد، والرجاء في عودتهم إلى كتاب ربهم سبحانه، وإلى سنة نبيهم - صلى الله عليه وسلم -، وإلى منهجهم القرآن، الهادي إلى سبيل الرشاد، وحتى يشرق نور الإسلام، وينتهي زمن الضلالة والغواية، وينقشع عن أمتنا كل ظلام وبدعة، كان ولابد لنا من بداية، إنها بداية وأي بداية، إنها بداية الهداية، وبداية العودة إلى هدي الكتاب والسنة. إننا بحاجة إلى سفينة النجاة قبل أن يدركنا الغرق، وإن عودتنا كمسلمين إلى هذين الوحيين الصافيين، بمنهج وفهم سلف الأمة السابقين، من الصحابة والتابعين، هو النجاة وأي نجاة، نجاة تعصم أنفسنا من الفتن والشهوات، وتهدي الحائرين في ضروب الظلمات والمضلات.

وهذه معالم ومرتكزات عظيمة، أكتبها على استحياء مني لأحبابنا في الله تعالى، في هذا الطريق المستقيم، محاولاً جهدي أن أوافق الحق من كتاب الله تعالى وسنة رسوله وما أجمعت عليه الأمة الإسلامية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فإن أخطأت فنسأل الله الستر والغفران، وأنا منه براء، وإن أصبت فمن الله وحده، وقد أعددتها لهذا الغرض، راجيًا من الله تعالى أن ينفعنا بها، وأن ينفع بها المسلمين أجمعين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

عاطف عبد المعز الفيومي

في ٢٠ رجب ١٤٣٠ للهجرة النبوية.

فيصل - الجيزة

الفصل الأول

وقفات على طريق الدعوة والإصلاح

الفصل الأول

وقفات على طريق الدعوة والإصلاح

أولاً: منهج الإصلاح بين القرآن والسنة والواقع:

الإصلاح في اللغة والقرآن والسنة:

الصلاح والإصلاح: ضد الفساد ونقيضه، وهي مصطلحات شرعية ربانية أوردها الله تعالى في كتابه المحكم العزيز، وجاءت في القرآن على نحو كبير يربوا على السبعين بعد المائة من آيات القرآن، ووصف بها العمل أحيانًا كما قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [التوبة:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [هود:٤٦]، وقال تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**﴾[مريم:٦٠]، وقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ**﴾[القصص:٦٧]، إلى غير ذلك من آيات القرآن.

كما وصف الله تعالى الداعين الناس إلى منهج الله وشرائعه، القائمين به ديناً وعملاً بالمصلحين، أي الساعين إلى الإصلاح فيما وقعت فيه البشرية من الانحراف والبعد عن صراط الله المستقيم وشرائعه كما قال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨].

وكذلك الحال لما استخلف نبيُّ الله موسى أخاه هارونَ عليه السلام في قومه أوصاه بقوله: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وكذلك أخبر الله عن حال قومه بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ [الأعراف:١٧٠]، وقال تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا**

أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧،١١٦].

والمتأمل لهذه المادة مادة: صلح يصلح وما خرج منها – كأصلح، يصلح، صالحين، مصلحين، يصلحون، صالحات وغيرها – كما جاءت في كتب المعاجم واللغة كاللسان والصحاح وغيرهما، يجد أنها تعود في جملتها إلى استقامة الشيء وصلاحه، واستقامة الإنسان والنفس على المكارم والأخلاق الفاضلة، وإلى النهي عن ضده من الانحراف والفساد في الأرض، ونفي الشحناء والبغضاء من القلوب، كما قال تعالى مبيناً ذلك في آياته المنزلة: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، ويقول: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:١٤٦]، ويقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩].

وكذلك في النهي عن الفساد في الأرض قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود:١١٧].

وكذلك الإصلاح بين المتخاصمين أو المتنازعين في الأمر كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]. وقال تعالى أيضاً: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤].

أما السنة النبوية ففيها من هذا الباب في الإصلاح والاستقامة والـدعوة إلى الخـير وإقامة الحق الشيء الكثير أيضاً، فمن ذلك ما جاء في صحيح الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن أم حبيبـة وأم سـلمة ذكرتـا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم: **"فقال إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئـك شرار الخلق عند الله يوم القيامة "**.

وعن أنس- رضي اللّه عنه- قال: قال رسول اللّـه صـلى الله عليـه وسـلم: **"إذا أراد اللّه بعبد خيرا استعمله"** فقيل: كيف يستعمله يا رسول اللّه؟ قال: **"يوفّقه لعمل صالح قبل الموت"**. أخرجه الترمذي والبغوي في شرح السنة.

وعن أبي هريرة- رضي اللّه عنه- أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: **"إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة، إلّا من صدقة جارية، أو علم ينتفع بـه، أو ولـد صالح يدعو له"**. رواه مسلم.

وعن النّعمان بن بشير- رضي اللّه عنهما- قال: سمعت رسـول اللّـه صـلى الله عليه وسلم يقـول: **"إنّ الحلال بيّن، وإنّ الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من النّاس، فمن اتّقى الشّبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشّبهات وقـع في الحـرام كالرّاعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكلّ ملك حمى، ألا وإنّ حمى اللّـه محارمه، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب"**. رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عبّاس- رضي اللّه عنهما- أنّ نبيّ اللّه صلى الله عليه وسـلم قـال: **"إنّ الهدي الصّالح والسّمت الصّالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النّبوّة"**. رواه أبو داوود وأحمد بسند حسن وصححه الألباني. وعن عبد اللّـه بـن عمـرو- رضـي اللّـه عنهما- أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قـال: **"الدّنيا متاع وخير متاع الدّنيا المـرأة الصّالحة"**. **رواه** مسلم.

وعن أبي هريرة- رضي اللّه عنه- عن النّبيّ صلى الله عليـه وسـلم قـال: **"قـال اللّه- عزّ وجلّ: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطـر علـى**

قلب بشر" مصداق ذلك في كتاب اللّه: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] ". رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عبّاس- رضي اللّه عنهما- قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **"ما من أيّام العمل الصّالح فيهنّ أحبّ إلى اللّه من هذه الأيّام العشر"**. فقالوا: يا رسول اللّه ولا الجهاد في سبيل اللّه؟ فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **"ولا الجهاد في سبيل اللّه. إلّا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء"**. رواه البخاري والترمذي.

وعن مرداس الأسلميّ- رضي اللّه عنه- قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: **"يذهب الصّالحون الأوّل فالأوّل، ويبقى حفالة كحفالة الشعير- أو التّمر- لا يباليهم اللّه بالة"**. رواه البخاري.

وجاء في صفة أهل الغربة في هذه الأمة في آخر الزمان عدة نصوص وأحاديث منها هذا الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **"بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء"**. وهو حديث صحيح ثابت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام. ورواه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه: **"ومن الغرباء؟ قال: نزاع من القبائل"** وفي رواية: **"الغرباء الذين يَصلحون إذا فسد الناس"**. وللترمذي من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده: **"طوبى للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس من سنتي"**. وعن عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا ذات يوم ونحن عنده: **"ماذا للغرباء ؟ فقيل من الغرباء يا رسول الله؟ قال : أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم"**. رواه احمد والطبراني بسند صحيح.

فمن كل هذه النصوص الواردة في القرآن والسنة، والتي مدارها على الصلاح والإصلاح، يستبين لنا أن هذا الباب يجب أن يكون محل البحث والنظر والاهتمام، لأنه من الأبواب الكبيرة والجليلة التي احتوتها كثير من النصوص والأدلة كما سبق.

والمتأمل في هذا أيضاً يدرك من خلال تنوع النصوص واستخدام مادة الصلح والإصلاح فيها، يدرك أن الإصلاح ميدان كبير وواسع، يتعلق بكثير من شؤون

الإنسان من حيث استقامته مع الله تعالى ومع الخلق، ومن حيث استقامة عمله وعبادته، وكذلك استقامة وصحة اتجاهه ومنهجه، وعقيدته وأخلاقه، وإلا تحول كل ذلك إلى نوع من الانحراف عن الهدى والصراط المستقيم، ونوع من أنواع الفساد في الأرض وفي المنهج والمعتقد.

وواقع المسلمين اليوم ينبئ عن وجود حاجة وضرورة ماسة وملحة إلى هذا الإصلاح، حيث تجاذب الاتجاهات الكثيرة، والفرق والأحزاب وغيرها إلى ميدان الإصلاح وما يتعلق به من قواعد ومناهج ووسائل، ولا ريب أن هذه الاتجاهات كلها لديها من المسوغات والاستدلالات ما تؤكد به على حتمية وجود الإصلاح في شتى ميادين الدين والدنيا، سواء كان ما تملكه من هذه القواعد والمناهج فيه حق بين واضح، أو فيه ألوان وصور من التخبط والانحراف الجارف.

وإن أولى المناهج والدعوات والاتجاهات المعاصرة اليوم بهذا الإصلاح المرتقب، أهل الدعوة والحق، المستمسكين به، الداعين إليه، الراجين ثوابه وثمرته، وأعني بهم الدعاة إلى منهج الله تعالى، والاعتصام بهدي الكتاب والسنة بما كان عليه سلف الأمة من قبل، كما دلت على ذلك الأدلة والنصوص.

مدارس إصلاحية متناقضة:

والمنادون اليوم بالإصلاح وضرورته، يعلمون جيداً أن ميادين الإصلاح كثيرة وواسعة، تبدأ من إصلاح الفرد وتنتهي بإصلاح المجتمع والأمة، ويشمل الإصلاح ما يتعلق بالفرد والمجتمع والاقتصاد والسياسة وغيرها، ولا يقوم به اليوم فرد من أفراد الأمة الإسلامية بذاته، بل إن الحاجة إلى التعاون والاجتماع فيه أمر واجب وملح، استوجبته ضرورات الواقع الإسلامي اليوم.

ولكن في ذات الوقت تتجاذب هذا المصطلح القرآني والنبوي أيد خفية ماكرة، وتلهوا بالأمة من خلاله، ويقعون في صور من الانحراف والتخبط عما زعموه من الإصلاح، بل ويتفقون ويتعاونون فيما بينهم على ذلك، من أمثال العلمانيين، والليبراليين، والشيوعيين، والحداثيين وأذنابهم كما جاء به القرآن: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ**

﴿تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢،١١].

وهذه الفئات تزعم أنها تريد إصلاح المجتمعات، وبناء الأمة، وتخليصها مما شابها من التخلف الحضاري والتقني وغير ذلك، وترى أن التحرر – المزعوم – من الدين والانفلات من قيوده، هو الباب الأوحد لهذا الإصلاح الحضاري المرتقب، ولا ريب أن هؤلاء واهمون متهافتون.

لأن تاريخ الأمم الغابر من أمثال الحضارات البائدة، كقوم عاد وثمود وفراعنة مصر وغيرهم، لما خلفوا دعوة التوحيد والعبودية، ودعوة الإصلاح المنزلة من السماء، على أيد الأنبياء والرسل عليهم السلام، ما أغنت عنهم ما زعموه من حضارة أو تقدم، والقرآن دليل واضح البرهان في هذا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦]. فهذا حديث القرآن في شأن قوم عاد، وما آل بهم من كبر وبطش واستعلاء بغير الحق، حتى حق عليهم وعيد الله تعالى وعقابه، وكذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١١،١٤].

ولكن على الجانب الآخر يظهر لنا مدرسة جديدة تنادي بالإصلاح والتغيير والبناء والعطاء، لما ألم بالأمة الإسلامية من ضعف وركون، ولما أصابها من تخلف وانحراف عن المنهج الصحيح الواضح، ولكنهم يريدون ذلك الإصلاح المنشود وفق ما تأثروا به وأعجبوا من واقع الغرب الحديث، أو ما تأثروا به من فرق الكلام كالمعتزلة والأشاعرة، وأول رواد هذا المدرسة الحديثة السيد أحمد خان الهندي المتوفى في ١٨٩٧م، ثم تبعه جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني وتبعه كذلك شيخ

الأزهر الأسبق الإمام محمد عبده ثم من صار على هذا الدرب، من أمثال محمد مصطفى المراغي ومحمود شلتوت ومحمد فريد وجدي غيرهم كثير.

ولكن ثَم حاجة ملحة إلى عمل إصلاحي كبير، ينهض بالأمة من رقادها، ويشد من عزمها نحو الإسلام من جديد، فكانت دعوة الشيخ حسن البنا - رحمه الله تعالى - في هذا الميدان من أبرز ما ظهر، حيث أنشأ جماعة الإخوان المسلمين، والتي قامت في مصر بجهود متعددة ومنوعة في هذا الاتجاه نحو الإصلاح، لكن دعوة الشيخ البنا كانت متأثرة بدعوة محمد عبده والأفغاني، إلى كونها متأثرة من جانب آخر ببعض الفرق التي شابها الغلو والانحراف في مدرسة التصوف والصوفية، مع رفض الشيخ لما هم عليه من غلو وانحراف، ثم تأثر الجماعة أيضاً بواقع الأحزاب السياسية مما أدخلها في طريق ابتعد بها كثيراً عن ميادين التغيير والإصلاح، ومن ثم تعددت جماعات أخرى كل وفق ما تصور وأراد، مع تنوعها في سائر البلاد، من أمثال مشروع مالك بن نبي المفكر الجزائري المعروف.

لكن يبقى هنا أن الله تعالى لا يسلم الناس إلى الشر المحض، ولا إلى أهل الأهواء والانحرافات، لأن الحق وأهله قائمون به في هذه الأمة كما جاء في الحديث: "**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بالحق ظاهرين.... الحديث**".

الدعوة ميدان الإصلاح الأول وطريق المصلحين:

ومع تعدد ميادين الإصلاح وتنوعها ما بين دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية، إلا أنه لا يقوم بكل ذلك في آن واحد أو يجمعها جمعاً رفيقاً صحيحاً إلا دعوة الحق والإسلام:﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف:١٠٨]، لأن جل هذه الميادين والقائمين عليها، سرعان ما تهوي وتنحدر بهم نحو الفناء لأنها قائمة على غير منهج من الله تعالى، وعلى غير بصيرة بشريعته ودينه، ولعل واقع الأمة اليوم خير شاهد على هذه الحقيقة الواضحة.

فالذين ينادون بالإصلاح لا يجعلونه عاماً وشاملاً، وإنما يقفون منه موقفاً تجزيئياً، حيث أنهم لا يلتفتون إلى كل ميادين ومجالات الإصلاح الصحيح، فترى منهم من

قاعدة انطلاقه المجالات الاجتماعية والاقتصادية، والتكافل فيها من رعاية الفقراء والأيتام، والأرامل والمساكين، وإقامة الجمعيات الخيرية والتعاونية، ومحاربة البطالة والفقر، وصناديق الاستثمار وغيرها، وهذا واجب ولا ريب، لكنه لا يعدوا أن يكون طريقاً واحداً في هذا الميدان الكبير.

ونرى من قاعدة انطلاقه من المجالات السياسية، فينطلق يؤسس أحزاباً ووطنيات وقوميات، ويخوض الصراع الكبير مع أصحاب السياسات والأهواء في غالب أحوالهم، ويمتد الصراع إلى أمد طال أو قصر، حتى يؤول الأمر إلى تفرق وتشرذم، وعصبية جاهلية بغيضة، لا تغير واقعاً، ولا تبني مصيراً، ولا تصلح خراباً، ولا تهدي من ضل عن سواء السبيل، لأن هؤلاء أرادوا إصلاحاً لكن من القمة لا من القاعدة الراسخة.

وليس معنى هذا الإعراض عنها إذا ذلل الله الطريق إليها، وتركها أيضًا مطية سائغة لأعداء الإسلام والمنهج، ولكن ثم وقت لحدوث ذلك ووقوعه.

لقد عرض على النبي – صلى الله عليه وسلم – الملك والسلطان، والمال والسيادة أول أمره ودعوته، لكنه أعرض عن كل هذا، واتجه نحو البناء والتغيير للنفس البشرية مباشرة دون تدخل واسطة ليس لها في النفس شأن ولا بنيان، وصمد حتى أذن بالهجرة المباركة إلى المدينة، فكانت هناك السيادة والملك والسلطان، ولكن بأهل العقيدة الراسخة، والأنفس الزكية الطاهرة، التي أرادت الحق وبذلت له أرواحها وأموالها، وكل ما لديها من مقومات الحياة.

ولا سبيل إلى حقيقة الإصلاح والنهوض اليوم في كل مجالات الحياة الإسلامية وصورها، إلا أن تقوم جماعة – أعني فريق من الأمة بالمعنى الشرعي – تحمل على عاتقها أمانة العودة والتغيير والإصلاح على منهاج النبوة الأول، ولا يتأتى ذلك إلا بالأصل الأصيل، والطريق القويم – الدعوة إلى الله تعالى على منهج السلف الصالح – مع كمال الاستقامة عليه: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٤].

والواقف بعين البصيرة مع السيرة النبوية المباركة يتجلى له بوضوح هذه الحقيقة الكبيرة – وسيأتي معنا ذلك بإذن الله تعالى في فصل مستقل – حقيقة إقامة الحياة الإسلامية بمنهج الدعوة إلى الله تعالى.

فبعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – كانت في جزيرة العرب التي حلت بها كثير من البلايا والرزايا في الاعتقادات والمعاملات، والأخلاق والسلوكيات، مع وجود بقايا لا تنكر من المروءة والأخلاق، لكن حياتهم ساد فيها صور وألوان من التردي في العقل والمعتقد مما جعلهم يعبدون حجراً لا يسمع ولا يبصر من دون الله تعالى، بل وتعددت الآلهة بتعدد أصحابها حتى سخروا من النبي – صلى الله عليه وسلم – وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

وكذلك أكلهم الربا، والظلم الاجتماعي، وانتشار الفواحش والمنكرات المعلنة بلا خجل أو وجل من قلب أو دين، فاستلزم ذلك بعثة ربانية تعيد البشرية إلى مسارها، وتقوم ما اعوج من دينها، وما فسد من أخلاقها ومعاملاتها، وما انحرفت فيه بأفهامها، فكانت دعوة التغيير والإصلاح، ودعوة البناء والهداية، ودعوة الخير والرشاد دعوة الإسلام: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:١٠٥].

فقام النبي – صلى الله عليه وسلم – معلناً عبودية الله تعالى وحده من دون الآلهة الباطلة، وصبر وثبت وأوذي كثيراً، وظل في دعوته ومنهجه، يدعوا الناس، ويعلم الناس، ويذكر الناس، حتى قامت دعوته خير قيام على ثرى المدينة المنورة، وما شرع الجهاد في سبيل الله تعالى، إلا بعد هذا الميدان الكبير من الدعوة الخالصة، والصبر على عنت أهل الكفر وضلالهم.

والمشككون في هذا الطريق اليوم ليسوا على شيء، لأن التاريخ خير شاهد، والقرآن والسنة خير دليل، والواقع الأليم اليوم يثبت كل ذلك. فلا سبيل اليوم إلا طريق المصلحين السابقين من الأنبياء والمرسلين، وفي مقدمتهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم.

ثانياً: وقفات على طريق الدعوة:

أولاً: ماذا تعني الدعوة الإسلامية؟ وما حقيقتها؟:

ماذا تعني الدعوة الإسلامية؟ وما هي حقيقة هذه الدعوة؟ وماذا تحمل من حقائق ومعاني؟ وماذا فيها من عقائد وشرائع وتصورات؟

الدعوة الإسلامية: تعني الدعوة إلى الإسلام دين الله الحق، المنزل من عند الله تعالى، الذي أرسل به جميع أنبيائه ورسله، هداة للعالمين ورحمة لهم، وعلى رأسهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الذي اصطفاه الله لهذه الدعوة والرسالة الخاتمة لجميع الدعوات والرسالات: "**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً..الآية**".

والدعوة الإسلامية تعني إقامة شريعة هذا الدين في الأرض، وإقامة عقائده وشرائعه ومبادئه وأخلاقه، كما أنها تعني صياغة الحياة البشرية كلها بصبغة الربانية والعبودية لله تعالى وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]. وقال تعالى: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**...الآية﴾، نعم صبغة قائمة على عبوديتها لله وحده وإيمانها بكتبه ورسله، عبودية قائمة على إفراد الخالق المعبود بالخلق والأمر: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤]، عبودية لا تتجه إلا على أصول العقيدة والتوحيد، ولا تقوم إلا على الحق والإيمان.

فلا عقيدة تستقر في القلوب إلا عقيدة الإيمان بالله والإيمان برسله، والإيمان بكتبه وشرائعه، والإيمان بالبعث بعد الموت والدار الآخرة دار الجزاء الحق، ولا شريعة تحكم الحياة البشرية وتقوم مسيرتها، وتهذب أخلاقها، وتصلح مجتمعاتها، وتبني سياستها واقتصادها، وحربها وسلمها، إلا شريعة هذا الدين الحق. لأنه الدين المنزل من عند الله وحده، فليس من دين غيره يقبل عند الله كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ**..الآية﴾. وكما قال أيضاً لمن اعتقد ديناً يدين به سواه: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ**

الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ ولأنه الدين الذي ارتضاه لها: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً..الآية﴾، ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ولأنه الدين الذي ضمنه الله تعالى كل جوانب السعادة والهداية في الحياة الدنيا وفي الآخرة: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى...الآيات﴾. ولأنه دين الحق الجامع لكل مظاهر الحياة البشرية وفق منهج الله تعالى، الشامل الكامل والصالح لكل زمان ومكان: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فالدعوة الإسلامية دعوة إلى الإسلام نفسه، دعوة إلى إنقاذ البشرية من الهلاك والضياع والتيه في الظلمات، والسير في ركب الشيطان وأتباعه، ودعوة إلى تحقيق سيادة ملك الله في الأرض وفي دنيا الناس: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

ودعوة إلى قيادة البشرية بمنهج الله تعالى الخالد الباقي إلى يوم الدين، وإفراده سبحانه بالعبادة والتشريع دون من سواه من المخلوقات: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩].

ودعوة لبناء النفس والإنسان الصالح لإقامة خلافة لله في الأرض، ودعوة لتحرير النفس البشرية من رق العبودية والذلة لغير خالقها، تحريرها من سلطان الشيطان عليها بكيده ومكره، وتحريرها من الخوف من ذوي السلطان والطاغوت الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، وتحريرها من تقديس الذات والمال واللهث وراء أعراض الدنيا الفانية القليلة، وتحريرها من الخوف والطمع إلا في خالقها وموجدها سبحانه وتعالى، وآيات القرآن فيها من هذا كثير: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وقال سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ

الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال عز وجل: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلاَ ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

وفي تحرير النفس من الخوف علي الحياة: قال تعالي: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]. وقال جل ذكره: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفيتحرير النفس من وفي الخوف علي الرزق: قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وفي تحرير النفس من الخوف علي المكانة في المجتمع: فالإنسان في مجتمعه لا يملك ضراً ولا نفعا، ولا عزاً ولا نصراً، ولا رفعة ولا مكانة، ولا أي شيء من ذلك إلا بإذن الله وأمره «قل إن الأمر كله لله»، قال تعالي: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقال تعالي: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨]. وقال تعالي: ﴿وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]. وقال سبحانه وتعالي: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وفي **تحرير النفس من تقديس المادة**: قال عز وجل: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي **تحرير النفس من سلطان الشهوات**: قال سبحانه وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقال سبحانه عقب هذه الآية: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقال الله سبحانه: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وفي **تحرير النفس البشرية من سلطان الهوى**: قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ودعوة لتزكية الأنفس والقلوب بمعرفة خالقها والتقرب إليه والطمع في رحمته وجنته، ودعوة للتصدي للشيطان الرجيم ومكائده وحبائله، والوقوف أمام فساد أتباعه وأعوانه الذين يتملقون البشرية ويلهثون خلف الشهوات الكامنة، واللذات

المحرمة، ولا يراعون لها أدباً ولا حرمة ولا كرامة، ودعوة لبناء مجتمع رباني نظيف قائم على رعاية الآداب، وحفظ الحرمات، قال الله سبحانه: ﴿**وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٢٧].

إنها ليست دعوة لقمع البشرية واستعبادها، والسيطرة على مقدرات الشعوب وأقواتها، ونهب أموالها وممتلكاتها، كما فعلته في القرون المتأخرة الشيوعية الخبيثة المادية، بأفكارها ومعتقداتها الإلحادية الكافرة، أو كما تفعله أمريكا وأوربا بمباركة وتخطيط يهودي صليبي ماكر، أو حتى ما يفعله أرباب الأموال والثروات من الهنود واليابانيين والصينيين.

كما أنها ليست دعوة للخروج على حكم الله وشريعته، بدعاوى التقدم والعلم والانفتاح العلمي أمام البشرية مما يجعلها ليست في حاجة إلى شريعة تحكمها ولا دين ينظم شؤون حياتها.

كما أنها ليست دعوة مستمدة من العقل والفكر البشري القاصر عن إدراك حقائق الأشياء، ولا الوصول إلى جميع مدلولاتها ليصوغ لها قوانين بشرية في شتى مجالات الحياة، ثم يحكمها فيها ويقول لها هذا هو القانون العصري الذي يتناسب مع طبيعة هذا الزمان.

كما أنها ليست دعوة أيضاً للتعدي على آداب الإنسان وحياءه وحرماته، وليست دعوة للفوضى والإباحية والفواحش والمنكرات على حساب شريعة الله والآخرة.

لكنها دعوة ربانية طاهرة، تسموا بالإنسان إلى حيث هو عند الله من التكريم والرفعة، وتسموا بأخلاقه وآدابه فيرتفع بإيمانه بالله، على دنايا النفس وحب الشهوات واللذات التي تقودها كثيراً إلى الهلاك والخسران.

وهذه المعاني كلها جمعتها هذه الدعوة، التي هي بحق دعوة الإسلام، لأن الإسلام دين الفطرة الذي يولد عليه كل مولود: "**كل مولود يولد على الفطرة**"، وهذه الفطرة تعنى أن الكون والإنسان لم يخلقا عبثاً ولا هملاً كما أخبر سبحانه وتعالى في كتابه:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ... الآيات﴾، وكما قال في موضع آخر: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

بل وبالغ سبحانه في نفي العبث واللهو في الخلق والأمر عن نفسه فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ...الآيات﴾، فالكون والإنس والجن، والنجوم والأفلاك، والجبال والبحار، والسماوات والأرض جميعاً، خلقها الله تعالى لحكمة جليلة، وغاية نبيلة، كما أخبر تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

إنها غاية العبودية لله تعالى وحده لا شريك له، وهذه غاية الوجود الإنساني والبشري على هذه الأرض، ومن هنا كانت الدعوة إلى هذه الغاية الربانية الجليلة، هذه معاني وملامح الدعوة الإسلامية التي أنشأها الله تعالى على يد نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الأطهار - رضي الله عنهم -.

ثانياً: حقائق على طريق الدعوة:

[١] طريق طويل شاق:

الدعوة طريق طويل شاق، تبذل فيه النفوس والأرواح والمهج، طريق على جانبيه كلاليب وخطاطيف، تشد السائر إليها شداً، وتجذبه جذباً، ليس كما يقع في بعض النفوس، من أنه طريق معبد، طريق زانه على جانبيه الورد والزهور، كلا، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: "**خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ خَطًّا، فَقَالَ: "هَذَا سَبِيلُ اللَّه". ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا يَمينًا وَشمَالا، ثُمَّ قَالَ: "هَذه سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبيلٍ منْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْه ". ثُمَّ قَرَأَ وَأَنَّ هَذَا صرَاطي مُسْتَقيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيله** [الأنعام: ١٥٣] ".

هذا فهم بعيد عن حقيقة هذا الطريق الذي لا يسير عليه، إلا ثلة من أهل الصدق والإيمان، ولا يثبت عليه إلا من خالط الإخلاص قلبه، وتمكن اليقين نفسه، وأبصر الجنة أمام عينيه. ليس كل أحد يصلح لطريق الدعوة والإيمان، وليس كل أحد من الناس، يختار لنفسه السير في هذا الطريق الطويل الشاق إلا من اصطفاه الله

وهيأه، نعم، حقيقة ثقيلة على النفس لكنها حقيقة، وهذا هو ما أخبر بـه الله تعـالى في كتابه العزيز بقوله تعـالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّـاسِ إِنَّ اللَّـهَ سَـمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[الحج:٧٥] وبقولـه تعـالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

وهذا الطريق جعله الله رفعة وعلواً في الشأن والمكانة لأهله العاملين فيه كما قال تعـالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِـي مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] .

كما جعله سبحانه تصفية للصف المسلم، وتمييز الخبيث مـن الطيـب، والصـادق المؤمن من المنافق الكاذب كما قال تعـالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَـإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّـذِي كَـانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَـلَ فِتْنَـةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَـا فِـي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١-١١].

فهذا الطريق، لا تصلح فيه الـدعاوى المجـردة عـن الصـدق والـيقين والمتابعـة لله ورسوله، لأن هذا الطريق سالت عليه الدماء، ومزقت فيه الأشلاء، وأوذي أهله أشد الإيذاء، فقد أوذي فيه نبي الله نوح، واستهزئ بصالح، وكـذب موسـى، وقتـل يحيـى وزكريا، وسجن يوسف، وألقي إبراهيم في النار، ونُجـي عيسـى إلى السـماء، وأوذي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وسالت مـن قدميـه الـدماء، ولكـن صـبروا وثبتـوا وأيقنوا بنصر الله لهم قال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَـا كُـذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١٠٩-١١١].

[٢] طريق واضح:

وهذا الطريق لا بد فيه من الوضوح والصفاء، الوضوح الذي يزيل اللبس والغموض، ويبين معالم الطريق وأهدافه وغايته، وضوح ليس فيه التواء، وليس فيه تدليس على أحد، كلا. قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

إنه طريق على بصيرة، بصيرة في كل ما لديه من مقومات ومبادئ، وبصيرة في عقائده وتشريعاته، وبصيرة في أخلاقه وعباداته، وبصيرة في حياته ومعاملته، وبصيرة في حربه وسلمه، وبصيرة في نومه ويقظته، وبصيرة في ولاءه وبراءه، وبصيرة في جميع شؤونه وتوجهاته، إنه طريق لا يعتريه النقص ولا الخلل، ولا يشوبه الأهواء والبدع، ولا تؤخره العقبات والمحن، إنما هو على بصيرة.

إن الوضوح في المنهج يعني: صحة العقيدة ومنهجها، وصحة العبادة وسلامتها، وصحة السلوك والأخلاق واستقامتها، فالعقيدة فيه واضحة لكل أحد، فلا تقديس ولا عبودية لأحد سوى الله تعالى، ولا شركاء في حكمه وشرعه، الذي هو أمره ونهيه، فهو الواحد المعبود صاحب الخلق والأمر قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ

اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٢١].

والعبادة فيه واضحة، فلا ذبح ولا نذر، ولا قربان ولا تعبد، ولا شيئاً من ذلك إلا لمستحقه سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

والتزكية فيه والأخلاق واضحة، فلا تستقيم النفس إلا بهداه، ولا تسعد إلا بسلوك الطريق إليه الذي أراده لها كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٧-١٠].

وقد جمع الله لنا في كتابه كثيراً من الأخلاق الفاضلة، فمنها في وصف عباد الرحمن وبيان صفاتهم وأخلاقهم قوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتابًا * وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣،٧٦].

والتشريع والحكم فيه واضح، فليس لأحد مع الله قول، ولا تشريع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ

جَعَلْنَا منكُمْ شرْعَةً وَمنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً وَلَـكن لِّيَبْلُوَكُمْ في مَا آتَاكُم فَاسْتَبقُوا الخَيْرَات إلَى الله مَرْجعُكُمْ جَميعاً فَيُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُمْ فيه تَخْتَلفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]،

وأمر سبحانه بحكمه وحده دون متابعة الشركاء والأهواء، وحذر من مخالفة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتنُوكَ عَن بَعْض مَا أَنزَلَ اللّهُ إلَيْكَ فَإن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُريدُ اللّهُ أَن يُصيبَهُم ببَعْض ذُنُوبهمْ وَإنَّ كَثيراً مِّنَ النَّاس لَفَاسقُونَ﴾ [المائدة:٤٩].

كما أنه لا يبدأ فيه في البناء والتغيير من القمة، وإنما يبدأ فيه من القاعدة المسلمة، من خلال تغيير الأنفس أولاً قبل تغيير الحكومات والأنظمة البشرية كما قال تعالى: ﴿إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بأَنْفُسهمْ وَإذَا أَرَادَ اللّهُ بقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونه من وَالٍ﴾ [الرعد١١].

كما أنه ثابت في عقيدته ومنهجه في جميع مراحله وتوجهاته، لأن العقيدة التي فيه لا ينتقل منها إلى غيرها، إنما ينتقل معها إلى غيرها، لأن العبادة والسلوك والمعاملات لا تقوم إلا على عقيدة تؤسسها أولاً، ثم تستمد المنهج والتشريعات منها، وإن تركها والإعراض عنها في أي مرحلة، يشكل نوعاً من الغبش واللبس والغموض، ونوعاً من الكفر والفسوق والظلم، فالحكم بما أنزل الله عقيدة وتشريع فمن ترك أحدهما دخل في نوع من المخاطرة على عقيدته كما قال تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتنُوكَ عَن بَعْض مَا أَنزَلَ اللّهُ إلَيْكَ فَإن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُريدُ اللّهُ أَن يُصيبَهُم ببَعْض ذُنُوبهمْ وَإنَّ كَثيراً مِّنَ النَّاس لَفَاسقُونَ﴾ [المائدة:٤٩] ، وكما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئكَ هُمُ الْكَافرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئكَ هُمُ الظَّالمُونَ﴾ [المائدة:٤٥] وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].

وغاية كل هذا الوضوح والجلاء، تعبيد الناس لله وحده، وإقامة جميع مظاهر العبودية له دون ما سواه من الشركاء والآلهة الباطلة والأنداد كما قال تعالى: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ وَالإنسَ إلاَّ ليَعْبُدُون﴾ [الذاريات: ٥٦]. فأخبر سبحانه أن الحكمة من خلق الجن والإنس: هي قيامهم بعبادة الله، والله غنيٌ عن عبادتهم، وإنما

هم المحتاجون إليها لفقرهم إلى الله تعالى، فيعبدونه على وفق شريعته، فمن أبي أن يعبد الله فهو مستكبر، ومن عبده وعبد معه غيره فهو مشرك، ومن عبده وحده بغير ما شرع فهو مبتدع، ومن عبده وحده بما شرع فهو المؤمن الموحد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «العبادة: هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »أ هـ.

وهذه والعبادة توقيفية: بمعنى أنه لا يشرع منها إلا بدليل من الكتاب والسنة، وما لم يشرع يعد بدعة مردودة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: "**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**"، أي مردود عليه عمله، لا يقبل منه بل يأثم عليه، لأنه معصية وليس طاعة.

ثم إن المنهج السليم في أداء العبادات المشروعة هو الاعتدال بين التساهل والتكاسل، وبين التشدد والغلو، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [هود: ١١٢]، فهذه الآية الكريمة فيها رسم لخطة المنهج السليم في فعل العبادات.[١] ومبنى العبادة في الشريعة الإسلامية يقوم على قاعدتين هامتين:

الأولى: ألا يعبد إلا الله وحده.

الثانية: ألا يعبد إلا بما شرع على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالعبودية لله تعالى هي غاية الوجود الإنساني في الحياة الدنيا، وقد تعرض القرآن الكريم لها وبين ما اشتملت عليه من المقامات العالية، وأشار القرآن إليها في كثير من آياته، ودعا إليها، وحث عليها، ومدح أهلها القائمين بها وبحقوقها، وأثنى بها على أنبيائه ورسله عليهم السلام، ووعدهم بالأمن يوم القيامة من الفزع والأهوال، وبالفوز بجنات النعيم في دار الخلود الأبدى، ومن ثم أمر بها عباده الصالحين، بدءًا من الأنبياء والمرسلين، وشرعها لهم ولأتباعهم من بعدهم، وأمرهم بالإخلاص فيها،

---

(١) العقيدة الإسلامية.أحمد آل سبالك.

وجعل دعوتهم جميعًا إليها، وهذه النصوص القرآنية توضح كل ما أشرنا إليها إيضاحًا تامًا شافيًا:

كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وبهذه العبادة أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم عليهم السلام لقومهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال أيضًا لرسوله صلي الله عليه وسلم: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هنا هو: الموت.

كما وصف سبحانه ملائكته وأنبياءه بالعبودية فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩،٢٠].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

إن تقرير حقيقة العبودية في حياة الناس يصحح تصوراتهم ومشاعرهم، كما يصحح حياتهم وأوضاعهم، فلا يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع، على أساس سليم قويم، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار عندما تستقر هذه الحقيقة بجوانبها في نفوس الناس وفي حياتهم يلتزمون بمنهجه وشريعته ويستشعرون العزة أمام المتجبرين والطغاة، حين يخرون لله راكعين ساجدين يذكرونه ولا يذكرون أحدًا إلا الله تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس.

إن استقرار هذه الحقيقة الكبيرة في نفوس المسلمين وتعليق أنظارهم بالله وحده، وتعليق قلوبهم برضاه، وأعمالهم بتقواه، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه، في هذه الحياة. فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات في الآخرة، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله(١).

[٣] طريق منتصر:

نعم ، فمع كل ما ذكرنا من طوله وعقباته، إلا أنه منهج منتصر، منهج له الحكم والسيادة مهما طال الزمان، واشتدت المحن، ورصدت العقبات، منتصر لأنه من عند الله، ومنتصرلأنه منهج الله، ومنتصر لأنه كلمة الله هي العليا أبداً ودائماً، ومنتصر لأنه منهج معصوم لا يعتريه الخطأ والزلل، ومنتصر لأنه يملك كل مقومات البقاء، وكل مقومات الظفر والاستمرار والنصر.

نعم إن المستقبل القريب لهذا المنهج الرباني، وهذا وعد الله تعالى ولا ريب كما قال تعالى: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾، وكما قال أيضاً: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾، ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُم في الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبْلهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْد خَوْفهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَني لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ**﴾.

وهذه الآيات القرآنية شواهد على صدق وعد الله تعالى لعباده وأوليائه، ونصوص السنة النبوية الصحيحة عند مسلم ومسند أحمد وغيرهما شواهد على ذلك.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح**

(١) في ظلال القرآن(٢/٢٨٠).

بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا".

* * *

ثالثاً: دعوة على طريق السلف الصالح:

إن هذه الدعوة التي نسعى إليها، ونؤمن بها، تحققت واقعاً عملياً، وحياة أمة، ومنهج حياة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وعلى هذا الخطى النبوي سار التابعون وتابعوهم، سائرون على منهاج النبوة، مستمسكون بحبل الكتاب والسنة، ونحن اليوم لا نجد بداً من سلوك هذا الطريق الذي سلكوا، والوقوف فيه حيث وقفوا. لأن الله تعالى مكن لهم بهذا المنهاج، وأبدلهم بعد خوفهم أمناً، وأصبح لهم دولة وصولة، وفتحوا الدنيا بما جاءهم من النور والهدى، وصاروا أعزة فاتحين بهذا الدين. وقد جاء في الحديث"**خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**" فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن خير قرون الأمة القرن الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جيل الصحابة رضي الله عنهم فقال: "**خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**". وقال عبد الله بن مسعود: "إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحدِثُون ويُحدَثُ لكم، فإذا رأيتم محدَثةً فعليكم بالعهد الأول". وقال الإمام مالك: "لم يكن شيء من هذه الأهواء، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر، وعثمان".

نعم لا بد من هذا الطريق، لأنه على منهاج النبوة، ولأنهم صدر الأمة الذين صلح بهم أمر الدين، ولأن الأمة لا تمكن آخر الزمان إلا على هذا المنهاج منهاج النبوة كما جاء في الحديث: "**ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**"، فكان ولا بد لنا من دعوة على منهج السلف الصالح.

المنهج السلفي منهج حياة شامل:

وهذا المنهج ليس منهجًا قاصرًا عن مواكبة أحداث الحياة والعصر، وليس منهجًا ناقصًا يعتريه الخلل والخطأ، إنما هو منهج حياة شامل وكامل صلح به المسلمون

الأوائل، ومكنوا به، وشموليته تعني دخول جميع مجالات الحياة البشرية في منهجه، من حياة الإنسان الخاصة، وإلى حياة الأمم والعالم، فمن شموليته دخول العقيدة والعبادة والأخلاق في منهجه، ودخول شؤون المعاملات والتجارات والاقتصاد والسياسة، ومجالات العلم والبحث والفكر والتربية، وشؤون الحكم والسلطان، والحرب والسلم وأحكام الأسرة المسلمة، وغير ذلك مما يتعلق بجميع شؤون الإنسان في الحياة كما قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ..الآية﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى:﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام:١٦٢].

ومن صلاحيته أنه لا ينتهي عند زمان أو مكان، ولكنه صالح لكل أهل زمان وعصر، ولكل أهل مكان ومصر، باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٥].

يخطيء قوم حينما يعتقدون أن هذا المنهج ثوب أبيض قصير، وسواك في الفم، ولحية تعفى، وعبارات وألفاظ لا يتخطاها المسلم في كلامه، كلا، إن كل هذا مطلوب شرعاً، سواء أكان من الفرائض والواجبات، أم كان من السنن والمستحبات، ولكنه لا يعني أن المنهج قاصر على هذا فحسب. إن هذا الدين كبير وعظيم، أكبر من أن يحتويه عمل عامل، أو علم عالم، فلتكن نظرتنا صحيحة مستقيمة، إنما هو منهج حياة كامل، إن منهجنا عقيدة وعبادة، وأخلاق وتربية، وأقوال وأفعال، ودنيا وأخرى، ومعاملات وآداب، وسياسة واقتصاد.

المنهج السلفي منهج قائم على التأصيل الشرعي:

نعم منهج قام على التأصيل الشرعي، وتقديم أدلته الصحيحة الواضحة على كل دليل، منهج ليس فيه تأصيل مخالف للكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة، وليس فيه تأصيل يوافق مناهج أهل البدع والأهواء، إلا أنهم هم يوافقوه أحياناً لأنه الحق، ويخالفونه مرات ومرات، وليس فيه اتباع على غير بصيرة وعلم، ولكن منهج قام على التدليل الصحيح، والتأصيل القويم، والفهم السديد، والحجة الواضحة.

فمن تأصيلات المنهج لزوم اتباع الكتاب والسنة الصحيحة الثابتة، والحذر من اتباع الأهواء والبدع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩]. وكما جاء في الحديث: "**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا**". ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**فعليكم بسنتي**".

ومن تأصيلات المنهج الاهتمام بالعقيدة والتوحيد في البناء الدعوي والإيماني وترسيخ ذلك في النفوس كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

ومن تأصيلات المنهج تقديم النقل على العقل، مع الاعتقاد بعدم تعارض العقل مع النقل، ولا النقل مع العقل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]. وقال ابن عباس رضي الله عنه: "توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون: قال أبو بكر، وقال عمر".

ومن تأصيلات المنهج الرفض والبعد عن التأويل الكلامي المرجوح، لأن فتح هذا الباب تقع المفاسد والتأويلات الكلامية التي مصيرها إلى نقض عرى الإسلام، وتمييع شرائعه وعقيدته، فما خرج الخوارج إلا من هذا الباب، وما وقع من فتن وأصحاب أهواء وتأويل فاسد فقتلوا الصحابة، وسفكت دمائهم، وكان ما كان بينهم، وأمرهم جميعاً إلى الله.

ومن تأصيلات المنهج لزوم الجماعة مع حسن السمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية أو إظهار كفر عندنا فيه من الله برهان كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

ومن تأصيلات المنهج صحة العقيدة، وصحة العبادة، وصحة السلوك والأخلاق، إذ من دونها ينحرف الإنسان، ويخالف الصراط المستقيم، إذ أن انحراف العقيدة يوقع صاحبه في أبواب من الزيغ والضلال، ويوقع في البدع والأهواء،

وكذلك العبادة والسلوك، فلا بد للسالك في هذا المنهج أن تصح له الطرق الثلاث، العقيدة والإيمان، والعبادة، والسلوك.

المنهج السلفي ودوره الإصلاحي:

والمتأمل في تاريخ الدعوة الإسلامية يرى أن منهج الصحابة رضي الله عنهم والتابعين قام حقيقة الأمر على تعظيم نصوص الوحيين القرآن والسنة، وكمال التسليم لهما. أما المخالفون لمنهجهم وطريقهم من أهل البدع والأهواء، فقد زلت أقدامهم، وضلت عقولهم في ذلك، فحرفوا، وغيروا، وبدلوا، وأولوا، ووقعوا في الفتنة والزيغ والضلال، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

وإن الحق والهدى والنجاة في متابعة ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، ولهذا جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم الميزان الحق حين وقوع الفتن والافتراق في أمته كما جاء في الحديث المحفوظ المشهور حديث الافتراق الذي وقعت فيه الأمم، والذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: **"افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي"**.

وفي بعض الروايات: "**هي الجماعة**"، رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. ومن هنا وقع كثير من الاختلاف والافتراق في كثير من الأحكام بسبب سوء الفهم للإسلام وتفرقت هذه الفرق هي الأخرى إلى فرق شتى، فكان من اللازم التصدي لهذه الفرق وبدعها التي أحدثتها في الإسلام.

ولقد وقف المنهج السلفي على طول التاريخ الإسلامي كله أمام كل هذه الفرق والمذاهب التي فارقت وخالفت الكتاب والسنة وما أجمع عليه الصحابة والتابعون، بدأً من الخوارج والقدرية والشيعة والمرجئة ومن سار على منوالهم، وقارع بعض الصحابة هؤلاء من أمثال عبد الله بن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم جميعًا.

كما تصدى جاهدًا أمام العقل المعتزلي والفلسفي، وأصحاب التأويل والتعطيل، وبين فساد ما ذهبوا إليه وخالفوا فيه من الحق والسنن، وفي العصر الحديث اليوم وقف المنهج أيضًا بقوة وثقة ثابتة أمام التيارات والأفكار والمذاهب المحاربة للإسلام من الشيوعية الماركسية والعلمانية والاشتراكية وغيرها وما تولد منها.

وقف ليبين للناس معالم الطريق والتمكين، ومعالم الشريعة والدين، ومعالم الحضارة الإسلامية المثالية الأرقى، ولهذا لم يتوقف هؤلاء عن معاداته والتشهير به، والنيل منه، والكيد له ولأتباعه، ورميهم بالتخلف والجمود والرجعية والأصولية.

أما اليوم فصار له دور كبير جديد، يضاف إلى دوره الأول من التصدي للمناهج المخالفة، وذلك من خلال عدة أمور نبرزها في كتابنا هذا:

الأول: التصدي للمناهج والمذاهب والفرق التي خالفت منهج الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، مع بيان الحق في ذلك بأدلته الصحيحة، من فرق البعثية، والاشتراكية، والقومية، والقاديانية، والبهائية، وما سواها من الفرق والمذاهب، وما بقي على شعاره القديم كالشيعة، والرافضة، والنصيرية، والإسماعيلية، والخوارج ونحو ذلك.

الثاني: العمل على إحياء الإسلام وفق منهج السلف الصالح وتصفية الإسلام وشريعته، مما علق به من المخالفات والأهواء والبدع ، إضافة إلى تشويه صورة الإسلام الصحيحة، وهذا ولا ريب دور كبير وجليل، وقف منه الاتجاه السلفي موقفاً حازماً، ولكن يحتاج إلى مزيد بيان ومنهجية، حتى تستبين معالم الطريق .

الثالث: العمل على تأهيل الأمة الإسلامية لمرحلة الخلافة الراشدة، وإقامة دولة الإسلام التي توحد الأمة على تحكيم شريعة الكتاب والسنة الصافية وفق منهاج النبوة كما جاء في الحديث المحفوظ : "**ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**".

وهذه الخلافة الموعودة هي التمكين الرباني من الله تعالى لدينه وأوليائه في الأرض، وقيامهم بهذه الدعوة الإسلامية الصافية من جديد، وهذا لا يتأتى إلا ببذل النفوس والأموال والأوقات دونه، ولا يتأتى إلا بالتضحية الصادقة لهذا المنهج، ولا

يتأتى إلا بعد أن يبدوا هذا المنهج صحيحًا واضحًا، اعتقـادًا وقـولاً، وفهمًـا وعمـلاً، وفق منهاج الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح من صدر الإسلام الأول.

* * *

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية بين الغربة الأولى والتمكين

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية بين الغربة الأولى والتمكين

قبل خوض غمار هذا الكتاب، وقبل الوقوف على بعض ملامح ومعالم طريق الدعوة والتمكين، لا بد لنا من البصيرة أولا بالتاريخ الماضي، تاريخ صدر الإسلام، وما كان فيه من وقائع وأحداث، حتى يتبين لنا كيف بدأت دعوة هذا الدين مسيرتها في التاريخ، وكيف مكن الله تعالى لهذه الأمة في تلك الحقبة الشديدة حقًا، وكيف كتب الله لها النصر والظفر بحركة ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم .

لأن الإسلام بطبيعته يمر بين مرحلتين من الغربة في بداية ظهوره وأول أمره، وبين عودته للقيادة والريادة في آخر الزمان، كما جاء في الحديث المعروف المحفوظ عند الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "**بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**". وقد بينت أحاديث أخرى صفات أهل الغربة الثانية منها: أنهم يصلحون إذا فسد الناس، ويصلحون ما أفسده الناس، فهم بهذا الصالحون المصلحون، الذين يتلمسون خطى منهاج النبوة الأولى، في محاولة صادقة منهم بإعادة الناس إلى أول أمرهم.

وقد جاءت كتب السيرة والسنة والتاريخ بذلك، فالغربة الأولى للإسلام قد محيت ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم والتمكين له ولأصحابه رضي الله عنهم، وبقيت الآن الغربة الثانية لعودة هذا الدين من جديد، وعودة منهجه إلى حياة الناس وواقعهم وهذا أمر يأخذ من الجهد والبذل والتضحية والثبات الشيء الكثير والكبير، ولكن مع الصدق والمجاهدة تؤتي دعوة الإسلام ثمارها بإذن الله تعالى كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:٦٩].

ولا بد هنا بداية من الوقوف أمام مظاهر الغربة الأولى للإسلام في صفحة من صفحات تاريخ هذه الدعوة المشرق، لنعود بعدها إلى واقعنا المعاصر، ونتأمل أين الطريق، وأين المخرج لهذه الأمة اليوم؟

أولاً: نظرة على الواقع الجاهلي:

المستقرئ للسيرة النبوية وواقع الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية وبعدها، يلمح الفارق الكبير بينهما، ويقف في اندهاش لما يراه من عظمة البناء الإسلامي، والتعليم النبوي، الذي أقامه الله تعالى لهذا الدين بالتمكين له، وجعله منهج حياة إسلامي، بعد أن ولت الجاهلية على أدبارها بما تحمله من عقائد وشركيات وثنية، وبما تحمله من تصورات ومعاملات وأخلاق وتشريعات جاهلية.

وكتب السيرة والتاريخ سطر فيها حال الجاهلية كلها، وما وصلت إليه البشرية آنذاك من انتكاس في الفطرة، وانحطاط في الإنسانية، وتقديس للآلهة المصنوعة العاجزة، لقد عاش العرب في مثالب الجاهلية يرتعون، وفي ظلمات الشرك والوثنية يعمهون، وخلف شهواتهم ورذائلهم ينكبون، هذا هو زمان البعثة المحمدية حقاً جاهلية وأية جاهلية.

وكما قال أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى : "بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزًا عنيفًا، فإذ كل شيء فيه في غير محله، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر، ومنه ما التوى وانعطف، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانًا آخر، ومنه ما تكدس وتكوم .نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل مالا يملك لنفسه النفع والضر.

رأى إنسانًا معكوسًا قد فسدت عقليته، فلم تعد تستسيغ البديهيات، وتعقل الجليات، وفسد نظام فكره، فإذا النظري عنده بديهي وبالعكس، يستريب في موضع الجزم، ويؤمن في موضع الشك. وفسد ذوقه فصار يستحلي المر ويستطيب الخبيث، ويستمرئ الوخيم، وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم، ولا يحب الصديق الناصح.

رأى مجتمعًا هو الصورة المصغرة للعالم، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً، وأصبح المجرم فيه سعيدًا

حظيا، والصالح محروماً شقياً لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف، ولا أعرف من المنكر، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية، وتسوقها إلى هوة الهلاك. رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهامة ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد. رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولًا، وعباد الله خولًا.

ورأى أحبارًا ورهبانًا أصبحوا أربابًا من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله. رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح، فعادت وبالا على أصحابها وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية، والجواد تبذيراً وإسرافاً، والأنفة حمية جاهلية، والذكاء شطارة وخديعة، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات، والإبداع في إرضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق، ينتفع بها في هيكل الحضارة، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة .رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه، ويجرح به أولاده وإخوانه".(١)

* * *

ثانياً: ظهور دعوة الإسلام:

هذا هو النظام الجاهلي الأول، الذي كان يعج بالهبوط الإنساني في كل شؤون حياته، وفقدانه لبدهيات الحياة المستقيمة السوية، لقد طال الفساد والخواء والضلال كل حياتهم، واستحال التغيير والإصلاح عند الكثير منهم، لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره على العالمين، وتشرق أضواء نوره وشريعته على هذه القلوب الغارقة في بحار من شهوات النفس والدنيا الفانية، والواقعة في مستنقع الرذيلة الآسن، فكانت البعثة الربانية والمحمدية، بعثة الإنقاذ والهداية لهذه البشرية الجاهلية التائهة.

---

(١) انظر ماذا خسر العالم. لأبي الحسن الندوي(٧٧-٨٧).

كانت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تغييراً حقيقياً وكبيراً لم يشهد مثله على طول التاريخ البشري كله، وما هذا إلا لأن مشركي جزيرة العرب جمعت فيهم جل أدواء وأمراض الأمم السابقة لها، التي لم تجتمع لأمة قبلها فكان الأمر جلل، كيف الطريق إلى تخليص هؤلاء من جميع هذه الأمراض والأدواء القاتلة، ولكن شاء الله ذلك، بحكمته وإرادته وقدرته كما أخبر سبحانه وتعالى بذلك في كتابه العزيز: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]، فكانت البعثة وبداية تنزل الوحي الرباني بغار حراء على النبي صلى الله عليه وسلم، وكتب السنة والسير والتاريخ بينت ذلك ودونته، فقد كان فتحاً من الله تعالى ومنة على هذه البشرية كلها، فقام النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا إلى هذه الرسالة الربانية، فاستجاب له بعض من الناس أول الأمر لتصديقهم له قبل البعثة ويقينهم في دعوته.

فبدأ التكوين النبوي لجيل هذه الدعوة، ورعيلها الأول من خيار الصحابة رضي الله عنهم وكان ذلك باصطفاء من يدعوهم للإسلام، وقوة تأثيرهم على أفراد ذلك المجتمع الجاهلي، يقول أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى: "لقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، أصاب الجاهلية في مقتلها أو صميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً ويفتتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين التاريخ".(١)

* * *

ثالثاً: غربة الإسلام الأولى:

ولكن مع بزوغ شمس الإسلام للوهلة الأولى وإشراقها على أرض الجزيرة المظلمة القاتمة بالشرك والضلال، وبزوغ رسالة الدعوة الإسلامية لهداية الخلق إلى توحيد خالقهم وإفراده بالعبادة وحده، بدأت الجاهلية الأولى بإعلان العداوة لهذا

(١) انظر ماذا خسر العالم. لأبي الحسن الندوي(٨٢).

الدين، وإعلان الحرب الكبيرة على هذه الدعوة الإسلامية الجديدة، التي تريد هدم صرح الجاهلية، وهدم كل معتقداتها وتشريعاتها الباطلة وما تحمله من تصورات وأفكار .

فبدأت قريش أولاً وهم أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم بإعلان رفضها وعنادها لهذه الدعوة التي جاء بها ابنها، مع أنهم جميعاً كان بينهم بقايا من الحنفاء ومن أهل الكتاب أمثال زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نوفل، ولكن هؤلاء ما كانوا يلقوا شيئاً من أذاهم ولا عنادهم ومكابرتهم .

لكن الموقف هذا تغيراً تماماً تجاه دعوة الإصلاح والهداية دعوة الإسلام، فشعر المسلمون الذي آمنوا بهذا الدعوة واتبعوا رسولها، بشيء كبير من الغربة بين هؤلاء القوم فلم يعودوا لهم أولياء ولا أنصاراً، بل تحولت إلى نوع من العداء والاعتداء على الأموال والأبدان بالتنكيل والتعذيب المفرط .

وبدأ المشركون في طريق جديد من الغضب والمقت على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه وآمن به وبرسالته، لقد سلكوا كل طريق لصد الناس عن الإيمان بالله ورسوله، وما تركوا أسلوباً ولا طريقاً إلا سلكوه ضد دعوة الإسلام.

فمن ذلك: ما جاء في تاريخ السيرة النبوية وكتبها من السخرية والاستهزاء والتكذيب بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وبأتباعه وأصحابه رضي الله عنهم، وتصور معي هذه الغربة الموحشة في قلوب الصحابة، حيث السخرية بهم وبنبيهم ورسالته وكتابه، والقرآن ذكر شيئاً كثيراً من ذلك كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الحجر:٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ [ص:٤]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾ [القلم:٥١].

ولا ريب أن كل هذا سنة من سنن الله تعالى التي وقعت في الأمم الخالية قبلنا كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ**﴾ [الأنعام:١٠].

ومن ذلك: صد الناس عن سماع القرآن ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم ولما جاء به، واتهام القرآن والرسول بأنه ساحر وكذاب وكاهن وشاعر إلى آخر هذه السلسلة البائسة من التهم العريضة لأهل الإيمان والحق، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

ومن ذلك: التعذيب والتنكيل لأصحابه والمؤمنين به المتبعين له، فلقد عذب كثير من الصحابة رضي الله عنهم، من أمثال سيدنا بلال بن رباح، وعمار بن ياسر وأبيه وأمه الذين قضوا نحبهم في سبيل الله تعالى، ومصعب بن عمير، وصهيب بن سنان الرومي، وأبو فكيهة أفلح الذي كان مولىً لبني عبد الدار، وخباب بن الأرت، وزنيرة أمة رومية التي أسلمت ثم عمي بصرها، ثم شفيت فقالوا سحر محمد، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً وغيرهم كثير ممن آمنوا في طليعة الدعوة الإسلامية.

ومن ذلك أيضاً: إثارة الشبهات الباطلة الكاذبة حول القرآن والرسول، وأنه ما هو إلا بشر مثلهم، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج وينام، كما حكى القرآن عنهم ذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان :٤-٩]. واتهموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وما كل ذلك إلا ليصدوا عنه الناس وعن أتباعه وتصديقه في رسالته ونبوته، وكذبوا البعث بعد الموت والخروج من القبور، وغير ذلك مما حكاه الله لنا في كتابه العزيز.

ومنها أيضاً: تقديمهم الإغراء والعروض الرخيصة من تولية الملك والسلطان عليهم، وجلب المال له ولأصحابه وجعلهم من أئمة الثراء والغناء بينهم، وتزويجه بالنساء والتمتع بهن على الفرش، وشفائه من أمراضه وعلله إن كان الذي نزل به من الأدواء وأنواع السحر، حقاً إنه السفه البشري الذي أضل العقول والقلوب عن هذا

النور والحق، وعن هذا البيان الشافي الهادي الواضح، وعن هذا الإعجاز البين القاهر. لقد غلب عليهم الكفر والمعاندة للحق، والجحود والتكذيب مع كمال علمهم بأنه الصادق الأمين، ولكنها السنن الربانية الجارية في الكون لحكمة يريدها الله تعالى، للتمكين لهذا الدين، والتمهيد الرباني لظهوره على سائر الأديان من دونه والنحل الجاهلية المعاندة .

ومنها أيضاً: محاولاتهم المتكررة لقتل النبي صلى الله عليه وسلم ومطاردته ونفيه، واجتماع قريش على ذلك بغية الوصول إلى شئ من التصدي لمد هذه الدعوة الجديدة عليهم، الزاحفة إلى قلوبهم، وذلك بما تحمله من عقيدة ساطعة مبرهنة، وأدلة ربانية لا يكابر العقل الرشيد فيها، وقد أثبت القرآن المنزل كل ذلك، ليكون لنا العظة والعبرة من أعداء الدعوة وأصحابها في كل زمان ومكان كما قال تعالى في سورة الأنفال: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾**(١) .

* * *

رابعاً: عوامل الثبات والتمكين:

ومع تنوع أساليب الجاهلية في مدافعة الحق والغلبة عليه، إلا أن الله ثبت نبيه ورسوله، وثبت الصحابة الذين آمنوا معه، وصدقوا نبوته ورسالته، ثبتهم لا لأنهم أصحاب الثروات والأموال، ولا لأنهم من ذوي الجاه والسلطان، ولكن ثبتهم لعدة عوامل جليلة وجدت في هذا الجيل المؤمن:

وأولها: أنهم أصحاب عقيدة صادقة، وإيمان لا تزعزعه الرياح والأعاصير من الشهوات والشبهات، ولأنهم أيقنوا أن هذا الدين هو فطرتهم التي تصرخ في أعماق نفوسهم أنه لا إله إلا الله وحده، لا يشاركه ولا ينازعه في ربوبيته ولا ألوهيته منازع أو شريك.

---

(١) انظر الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.

ولأنهم جعلوا التوحيد طريقهم إلى الله والدار الآخرة، وجعلوا إفراد الله وحده بالعبادة من الذبح والنذر والطواف وغيرها أحق وأجدر، لأنه المعبود المستحق لذلك فلا شريك له، ولا منازع له، ولا مماثل ولا مكافئ له.

وثبتهم لما رأى الإيمان خالط بشاشة قلوبهم فأضاء لها الطريق من جديد إلى الله المعبود سبحانه.

وثانيها: أن الله علم منهم صدق المتابعة والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلقد آمنوا بالله ورسوله، وصدقوه وتابعوه بمجرد الوقوف معهم بإثبات حقيقة الباطل الذي عليه أمر الجاهلية، وأنها عبدت من دون الله ما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، من الأصنام والأحجار والأوثان، وما إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإسلامه من ذلك ببعيد.

وثالثها: إعراضهم عن زينة الحياة الدنيا وزهدهم فيها، فلم يكونوا ممن يريدون شيئاً من متاع الدنيا وزخرفها، ولا متعها وقصورها، بل ادخروا ذلك النعيم عند ربهم في الدار الآخرة، وطلبوا رضوانه بذلك ففتح لهم كنوز الأرض.

ورابعها: الكتاب المنزل القرآن الذي ملأ قلوبهم معرفة بالله وإجلالاً له، وتعرفاً على أسمائه وصفاته، وبيان وعد الله لهم بما أعده لأولياء وعباده في الدار الآخرة في جنات النعيم، من الثواب العظيم، والنعيم الخالد المقيم، وترغيبهم فيها وذكر بعض ما فيها من اللذات والفرش والنظر إلى وجه الله جل جلاله، فقاموا يتلون ويتدبرون هذا الكتاب، وقاموا به ليلهم متهجدين عابدين حتى تورمت أقدامهم بذلك أول الأمر وكتب السنة فيها من ذكر القيام والتلاوة شيء كثير.

وخامسها: اليقين القلبي الذي أوقعه النبي صلى الله عليه وسلم في نفوسهم بأن الله سيمكن لهم ويبدل خوفهم أمنا وسلاماً، ويجعل العاقبة لهم.

فبشرهم ووعدهم وجعل الأمل يدب في قلوبهم ، فما كذبوا على استضعافهم، ولا نكلوا على قلتهم، بل صدقوا وثبتوا حتى يأتي أمر الله: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ**

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، بشر عمار بن ياسر، وبشر سراقة بن مالك، وبشر خباب بن الأرت وغيرهم فأيقنوا وصدقوا [(١)].

* * *

خامساً: البناء والتمكين:

لكل هذه العوامل والمبادئ وغيرها ثبت الصحابة رضي الله عنهم ثباتاً ليس له في تاريخ البشرية مثال سابق بهذه الصورة الجليلة الرائعة، ولقد رأينا ثبات بعض الأمم كأمثال القلة المؤمنة من بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام.

لكن ثبات الصحابة كان له صورة أخرى نشأت عن كمال الإيمان والتصديق بالله ورسوله، فلما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من جيل الدعوة الأول، وصبروا على الكيد والمكر، والصد والاستهزاء، والإعراض والإغراء، وتركوا كل متاعهم وأموالهم، بل ونساءهم وأبنائهم وعشيرتهم لله ورسوله، وكانوا مثالاً واقعياً للثبات على المبادئ والحق، والتضحية الصادقة من أجله ونصرته .

لما كان هذا حالهم مكن الله لهم في الأرض، وأذن لهم بالتمكين الموعود لأهل الحق والإيمان، والتوحيد والمتابعة ، فلقد أذن لهم بالهجرة إلى المدينة ولرسوله، تمهيداً لعالم ومجتمع إسلامي جديد، مجتمع لا يعرف الجاهلية، ولا يعرف الشرك والوثنية، ولا يعترف بألوهية المخلوقات، ولا بفساد المعاملات، ولا بقيام الحروب والعداوات من أجل لا شيء، ولا يستمد شرائعه وأخلاقه من تصورات بشرية، أو عقائد وأفكار رومانية أو نصرانية ، مجتمع لا تتملقه النفوس الدنيئة من أصحاب الشهوات الرخيصة.

لقد أزالت الهجرة كل ذلك فالهجرة تجب ما قبلها، لقد قام صرح شامخ للإسلام ودعوته بعد عدة محاولات للهجرة والبناء للحبشة، وزالت غربة الإسلام والرسالة

(١) انظر الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.

الأولى، ولم تعد غريبة على أرض الجزيرة، بل ظهرت كالشمس المنيرة في رابعة النهار، وعلا صوت الحق والإيمان على أبواق الجاهلية الخاوية.

زالت الغربة بهذا التمكين، الذي قام على أكتاف خيرة البشر بعد الرسل إنهم أصحاب الرسول وأتباعه، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه :"**فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ". وكما جاء في الحديث النبوي: "**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء**".

لقد كان الإسلام ودعوته غريباً على عادات وتصورات وعقائد الجاهلية، كان غريباً في عقيدته وتوحيده: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾.

وكان غريباً في نظامه وشريعته: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

وكان غريباً في أخلاقه: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾.

وكان غريباً في كل شؤونه وأحكامه: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

وكان غريباً في سياسته وحكمه: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ**﴾، ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾.

وكل هذا البناء الشامخ كان السبب في انقلاب الجاهلية بكل مقوماتها وتصوراتها وعقائدها على الدعوة الإسلامية، والوقوف بينها وبين الناس وإيمانهم

بها، يقول أبو الحسن الندوي رحمه الله: "والتقى أهل مكة بأهل يثرب. لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد. فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ .

وكان الأوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث. ولا تزال سيوفهم تقطر دماً. فألَّف الإسلام بين قلوبهم. ولو أنفق أحد ما في الأرض جميعاً ما ألَّف بين قلوبهم. ثم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين المهاجرين. فكانت أخوة تزري بأخوة الأشقاء. وتبذ كل ما روي في التاريخ من خلة الأخلاء.

كانت هذه الجماعة الوليدة- المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار- نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس ومادة للإسلام، فكان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده. وعصمة للإنسانية من الفتن والأخطار التي أحدقت بها.

لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار: ﴿**إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾".[١]

هذه إشارات سريعة للوقوف على واقع الدعوة الإسلامية بين التكوين والتمكين في بداية العصر الإسلامي النبوي الأول، وكيف استطاع النبي صلى الله عليه وسلم صياغة جيل الدعوة الفريد، من مرحلة البناء والتكوين، إلى مرحلة القيادة والتمكين، إنه منهج فريد حقاً في كل مقوماته وإنجازاته.

* * *

(١) ماذا خسر العالم.(٨٢).

الفصل الثالث

أمتنا بين الواقع والعودة إلى الكتاب والسنة

الفصل الثالث

أمتنا بين الواقع والعودة إلى الكتاب والسنة

وقفة مع طبيعة الواقع الإسلامي المعاصر، ووقفة مع طبيعة الصراع العالمي من حولنا.

نتأمل فيها حقيقة مؤلمة أصابت الأمة الإسلامية في مقتل، وأنزلت بها عدداً من الكوارث والبلايا، التي لا تصيب الأمم إلا إن تخلت عن منهج الله تعالى، ووقعت في التبعية الذليلة لأعداء الله تعالى ورسله، وسلمت القياد لغير من يستحقه، وتخلت عن رسالتها، التي ابتعثها الله تعالى من أجلها، **وهنا نقف مع محورين:**

أولاً: واقع الأمة الإسلامية المعاصر.

ثانياً: العودة إلى هدي الكتاب والسنة بمنهج السلف الصالح.

* * *

أولاً: واقع الأمة الإسلامية المعاصر:

[١] **واقع أمتنا المعاصر**: ينبغي أولاً أن نعلم أن أمتنا الإسلامية اليوم تحيى في مرحلة حرجة من مراحل التاريخ، وتعيش في ذات الوقت واقعًا مريرًا، كما أنها تحيى حياة الذل والهوان والاستكانة، وترضخ لما يملي عليها من أعوان الكفر والإلحاد من كل أمة، ومن كل جنس ولون، ولا تزال أمتنا تأكل فتات الموائد العالمية، ولا زالت أيضًا هي القصعة المستباحة لكل الأمم من الشرق أو الغرب، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم منذ ألف وأربعمائة وثلاثين سنة في حديث القصعة المشهور والمحفوظ ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

روى الإمام أحمد في مسنده عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على**

قصعتها، قلنا: يا رسول الله أمن قلة منا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهة الموت".

وها نحن اليوم نرى تلك الهجمة الشرسة الجديدة من أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، من الشيوعية المادية الملحدة، والصهيونية العالمية الماكرة، والصليبية الجديدة الخادعة، وغيرهم من العملاء والأذناب. وأمة الإسلام اليوم في ذات الوقت أمة شاردة عن رسالتها، غافلة عن غايتها، حيث نراها تتخبط ذات اليمين وذات الشمال، وعدوها اللدود باسط إليها ذراعيه بالفتن والشهوات، فهي أمة صارت ممزقة فيما بينها، مزقتها الحدود والسدود، ومزقتها مؤامرات الأعداء المخططة للنيل منها، وأصبح بأسها بينها شديد، وحالها لا يخفى على قريب أو بعيد.

فهي أمة تلعب في أشهر الملاعب العالمية، وترقص على أشهر وأرقى المسارح العالمية، وهي كذلك مترنحة بين الشيوعية مرة، وبين الصليبية مرة، وبين الصهيونية أخرى، وبين العلمانية رابعة وخامسة، وكل هذا جعل أحد الشعراء ينشد أبياتًا من الشعر ينسج فيها خيوط الواقع الأليم، الذي تحياه الأمة الإسلامية اليوم فيقول:

ما كان في ماض الزمان محرمًا ... للناس في هذا الزمان مباح

صاغوا نعوت فضائلٍ لعيوبهم ... فتعذر التمييز والإصلاح

فالفتك فنٌ والخداع سياسةٌ ... وغنى اللصوص براعةٌ ونجاح

والعري ظرفٌ والفساد تمدنٌ ... والكذب لطفٌ والرياء صلاح

إن الحال الذي آل إليه واقع أمتنا، وجعلها تغرق فيه قروناً طويلة، لن يغيره ما يكتب العلماء في مصنفاتهم فقط، ولا الأدباء في هجائهم ورثائهم، ولا ما تنشره الصحف والمجلات من مقالات ساخنة، ولا ما يلقيه الوعاظ في وعظهم وتذكيرهم، أو الخطباء في حماسهم وإنذارهم، وإن كنا نؤمن أن ذلك كله من وسائل التغيير والإصلاح.

ولكن كل هذه الوسائل لن تجدي من الإصلاح والتغيير شيئًا، إن لم يكن لها ما يؤهلها من قواعد وأسس ترتكز عليها أولاً، وتعمل وتنطلق من خلالها، ومن ثم تستمد قوتها، وتعيد بناءها، وترفع لواءها، وتستعيد مجدها وكرامتها المسلوبة منذ قرون.

إن أدق تشخيص لحالة أمتنا اليوم كما أشار أحد الكتاب المعاصرين، هو أننا مصابون بما يشبه الشلل المعنوي والفكري، في جميع أجهزتنا الأخلاقية، وملكاتنا النفسية، ومواهبنا الشخصية، وطاقاتنا العقلية، والعملية والعلمية، وكذا الاقتصادية والعددية، والروحية، كما أشار أحد الكتاب في مقال من مقالاته، كل ذلك يجعلنا في عجز عن الحراك الصحيح نحو تحقيق أهدافنا، وتأكيد وجودنا، وإثبات ذاتنا، مع أنه من الواجب على المسلم، أن يدرك وأن يعي ما يخططه أعداء الإسلام والمسلمين، من الكيد لأمة الإسلام والنيل منها، فإن الداعية إن لم يدرك حقيقة المعركة، وحقيقة المؤامرة، فهو في غفلة عن واقعه الذي يعيش فيه، ويحيط به، وإلا فإن عليه أن يعي كل ذلك، وأن يضع في الاعتبار في دعوته أن يتحرك بصدق لهذا الدين، وأن يوقظ النائمين بصوته إسلامه، وصوت قرآنه الذي يحمله بين جانبيه، وبكمال شريعته، وبواقعية منهجه وبسهولة تطبيقه وممارسته.

إن تبليغ الحق للناس، وتعرية الباطل لهم، وكشف زيفه، وإبراز وجهه القبيح، يفسد على أعدائنا طريقهم الماكر، وكيدهم الخبيث، وتخطيطهم المحكم الذي يزعمون، وصدق الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم:٣٠]. وهنا يجسد واقع الأمة الإسلامية وصورتها الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله فيقول: "ورضى عامة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي. وسرت فيهم أخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك، فترى المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها.

ترى تهافتًا على الشهوات ونهماً للحياة، نهم من لا يؤمن بالآخرة، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدخر من طيباتها شيئًا. وترى تنافسًا في أسباب الجاه والفخار، وتكالبًا عليها فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها.

وترى إيثارًا للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق، شأن من لا يؤمن بنبي ولا بكتابٍ، ولا يرجو معادًا ولا يخشى حسابًا. وترى حب الحياة وكراهة الموت، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته، ومنتهى أمله ومبلغ علمه. وترى افتتانًا بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية، وترى خضوعًا للإنسان، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبدة الأوثان".(١)

[٢] **صيحة الحق**: وبعد كل هذا الذي أشرنا إليه وأوضحناه من حال الأمة وواقعها، وحال أعداء الأمة في تكالبهم على الأمة والعبث بمقدراتها وعقائدها، علينا أن نعلم أن كل هذا لا يجعلنا نشرد بعيدًا، ولا أن نورث القلوب يأسًا وقنوطًا.

ولكني أقول أنه لا زالت هناك صيحة الحق تعلو على كل الأصوات، وتنادي بالعودة الصادقة إلى الأصالة الإسلامية وأصولها من الكتاب والسنة بمنهج وفهم سلف الأمة الصالحين، وإلى منابع السعادة، ومبادئ الرفعة والسيادة والتمكين ، وتنادي أيضًا بحتمية التغيير والإصلاح لواقعنا المعاصر، في كل مناحي الحياة ومجالات الإدارة والاقتصاد على الأخص، وتنادي أيضًا بجعل الإسلام ومنهاجه القرآن هو الدستور الأعلى للأمة ومنهاجها، كما كان في عهد النبوة المحمدية، والخلافة الإسلامية الراشدة على مر القرون.

نعم، لقد آن الأوان أن تعود أمة التوحيد والإسلام إلى شريعة ربها، وأن تعود إلى سنة نبيها، وإلى القرآن دستورها، وأن تشعل الإيمان المخدر في القلوب الغافلة، وأن تغرسه في الأجيال الصاعدة، لتكون أهلاً لحمل رسالة الإسلام والهدى، ولتبليغ مبادئها لكل العالمين، لابد لنا من هذه العودة الصادقة الجادة، ولابد لنا كذلك من اتخاذ الأسباب الموصلة إليها، الهادية إلى طريقها لماذا؟

لأن الأمة الإسلامية فرت فرارًا كبيرًا إلى كل ما يبعدها عن هدى الله تعالى وقرآنه، وعن هدي رسولها صلى الله عليه وسلم وسنته، وعن طريق عزها وشرفها

(١) ماذا خسر العالم.(٢٢٩).

وسيادتها، لقد جربت الأمة كل ألوان الفرار وأنواعه، حتى صارت إلى ما هي عليه الآن من الذل والاستكانة والاستعباد.

لقد فرت أمتنا إلى الفاحشة والعري والزنى، وفرت إلى الخنى والإباحية، والإسفاف بالأخلاق والتميع بالقيم، فماذا حصدت الأمة من وراء ذلك؟ ما حصدت إلا ضياع الأعراض، وانتهاك الحرمات، وفساد الأخلاق وانحلالها، وانتشار الفواحش والعري علنًا، وتمرد الأجيال، وانتشار الأوبئة والأمراض الخبيثة كالزهري والسيلان المنوي وأخطرها مرض الإيدز المدمر، والذي لا يزال الطب الحديث عاجزًا عن معرفة طرق الشفاء منه.

وفرت الأمة كذلك إلى التعامل الربوي وإعلان الفوائد المحرمة، والمساهمة في البورصات العالمية والاستثمارية، فما حصدت إلا انتشار الفقر والبطالة بين الأجيال المتلاحقة، وما حصدت إلا انتشار الفساد الاقتصادي والسرقة المعلنة في مقدرات الأمة وثرواتها وممتلكاتها.

وفرت الأمة أيضًا إلى تحكيم القوانين الوضعية المستوردة، فما حصدت إلا ضياع نعمة الأمن والأمان، وظهور الحرام بكل صوره وأشكاله من أخذ الرشوة، والسرقة، وشهادة الزور، وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وما حصدت إلا استعباد الأمم الكافرة لها، وتحكمها فيها، وإدارة شئونها وحياتها ومقدراتها، والعبث بأمنها وأخلاقها وعقائدها، حتى صارت الأمة قصعة مستباحة لكل أحد، وغنيمة مشبعة، ولعبة مسلية بأيدي العابثين.

والآن وبعد هذه الهوة الكبيرة من الانحراف والضياع، والذلة والهوان، فقد آن الأوان لأمة الإسلام أن تفر إلى الله حق الفرار، وأن تعتصم به حق الاعتصام كما قال سبحانه: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ [الذاريات:٥٠].

نعم، جربت أمتنا كل ألوان الفرار فلم تجدي ولم تهدى، فلتجرب مرة الفرار إلى ربها وقرآنها، ولتجرب الفرار إلى سنة نبيها وشريعتها، وسترى النتائج الكريمة بعد ذلك.

إن الجاهلية الأولى ملكت أصحابها وحكمتهم ردحًا من الزمان، حتى بعث لبنة التمام، ومسك الختام، محمد عليه الصلاة والسلام، فنبذوا الجاهلية وراء ظهورهم، بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان، وبعد أن فروا إلى ربهم، وإلى الإيمان والتصديق والتسليم لنبيهم، فماذا كانت النتيجة؟. كانت النتيجة أنهم أصبحوا سادة وقادة، وصاروا أعزة بعد ذلة، وأصحاب علم وبصيرة بعد غفلة وجهالة، وسادة ملك وأمة، بعد تشتت وفرقة، والتاريخ الإسلامي ثري بهذه الحقائق، والقرآن يحدثنا عن ذلك فيقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولكن السؤال الآن: من أين تبدأ العودة إلى الله؟ ومن أين تبدأ هذه الهداية؟ ومن أين يبدأ الإصلاح والتغيير؟، ونقول أولًا: إن حسن كل نهاية أصله صلاح كل بداية، فالبدايات هي محاسن النهايات، فمن حسنت بدايته، كملت نهايته وخاتمته بالحسن والصلاح.

إنه لابد لنا ولأمتنا من البداية الصحيحة لطريق الهداية والإسلام، حتى تثبت أقدام الإسلام، وتصلح أمة التوحيد والهدى، بترسيخ عقائدها، وتهذيب أخلاقها وتحكيم شريعتها، وحتى ترفع ألويتها، وتعيد مجدها وحضارتها، وإن بداية الهداية، وأصل التغيير والإصلاح لا تأتي من الخارج كلا، بل من الداخل وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وإن هذه البداية والعودة لا يحكمها أمر واحد فقط، بل إنها تقوم على جملة مترابطة من المبادئ والمرتكزات، والأصول والمقدمات.

* * *

ثانياً: وجوب العودة إلى هدي الكتاب والسنة بمنهج السلف:

فمما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية في حاجة ماسة إلى هداية إلى معالم الشرع وطرق الهدية التي أرادها الله تعالى منها، وإن بداية الهداية لهذه الأمة تكمن في العودة إلى هدي الكتاب والسنة عودة صادقة، والاعتصام بحبلهما على هدي سلف الأمة عليهم رضوان، فمتى عدنا إلى الكتاب والسنة فزنا وأفلحنا، ومتى أعرضنا عنهما

ضللنا وشقينا، وما كل ما يحدث لنا اليوم إلا من جراء الإعراض والصد عن هدى الوحيين الصافيين وصدق الله إذ يقول: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

وهنا لنا عدة وقفات مهمة:

أولاً: وجوب العودة إلى الكتاب والسنة:

إن العودة إلى لزوم هدي الكتاب والسنة في كل مجالات الحياة ليست تطوعًا ولا نفلاً نتقرب به إلى الله بأدائه، كلا، بل هذه العودة فرض على كل مسلم مكلف بالغ عاقل سواء أكان رجلاً أم امرأة.

ولنكن على يقين كامل، وثقة مؤكدة، أنه لا عز لأمتنا ولا نصر لها ولا كرامة إلا بهذه البداية، وإلا بهذه العودة الجادة إلى الله سبحانه، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ولنعلم أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فلنسرع الخطى بالعودة إلى القرآن والسنة، وإلى الاستجابة لأحكامها فإن فيهما الخير والهداية لنا إن أردنا ذلك.

إن الكتاب والسنة أصلان كبيران لهذا الدين، لأنهما ركن من أركان الإيمان، فمن كفر بالكتاب أو بالسنة فقد كفر بالإسلام كله، فعلى كل مسلم أن يؤمن بالكتاب والسنة، وأن يعظمهما، ويجلهما ويخدمهما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢]. كما أنه يجب على كل مسلم الإذعان لله ورسوله، والاعتقاد بوجوب التزام الكتاب والسنة، ووجوب متابعة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ [سورة النساء: ٦٥].

ومن هنا فإن الواجب على المسلم رجلاً كان أو امرأة أن يعلم العلم اليقيني بوجوب أن يتقيد في كل حركة من حركاته، وسكنة من سكناته، ونفس من أنفاسه،

بالكتاب والسنة التي جاء بها النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، **وقد حضت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة على وجوب الالتزام بهما، فمن آيات القرآن في ذلك:**

قوله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ**﴾ [الحشر:٧]. وقوله سبحانه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: ٣٢]. وقوله عز وجل: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ**﴾ [المائدة: ١٥،١٦]. وقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [ص:٢٩]. قال الحسن: تدبر آياته: اتباعه والعمل بعلمه.

أما عن نصوص السنة النبوية فمن ذلك ما يلي:

روي البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "**أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين**".

وروي الترمذي عن المقدام بن معد يكرب رفعه: "**ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني،وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله**". ولأبي داود: "**ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته ...**" الحديث.

وفي خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حث على التمسك بالكتاب والسنة حيث قال: "**وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بينًا، كتاب الله،وسنة نبيه**" رواه مالك، وذكر النصوص في ذلك أمر يطول إيراده فلنكتفي بما أردنا إيضاحه وبيانه، والله المستعان.

إذًا فالإسلام في البداية والنهاية هو التسليم للكتاب والسنة، والكتاب والسنة فيهما بيان كل شيء مما يحتاجه المكلف، قال تعالى عن القرآن: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [يوسف:١١]، وقال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ**﴾ [النحل:٤٤].

وذلك أن القرآن الكريم مشتمل على كل ما يهم الناس في معاشهم ومعادهم، عقيدة وعبادة وسلوكًا، على المستوى الفردي والجماعي، المحلي والعالمي، وذلك في شتى المجالات الثقافية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والحربية وغيرها، وقد بينا ذلك في كتاب «مجالات الدعوة في القرآن وأصولها» وفصلنا النصوص القرآنية التي تدعو إلى شتى هذه المجالات، الإنسانية والعقائدية والتشريعية والأخلاقية فليراجع في مكانه.

إذًا فالقرآن تبيانٌ لكل شيء، وهذا التبيان القرآني قد يكون بالنص والتصريح، وقد يكون بالإشارة والتلميح، وهذا الأمر ضمن للقرآن استمرارية العطاء للبشرية، وصلاحية الدين الإسلامي لكل زمان ومكان، فليس بعده دين يكمله أو ينسخه كما قال سبحانه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

ثانياً: أسباب العودة إلى الكتاب والسنة:

وإذا كنا نادي الأمة الإسلامية ونطالبها بوجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة قولاً وعملاً، توحيداً واتباعاً، قوة واقتصادًا فإن لذلك أسباب مهمة وأصيلة:

١- لأن منهاج الكتاب والسنة هو المنهاج الرباني الكامل المحفوظ من كل تغيير أو تبديل أو تحريف كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر٩].

٢- لأن الكتاب والسنة هما أصلا الوحي الذي يتسم بالشمولية والكمال، لكل مناحي الحياة الإنسانية، والوفاء بالاحتياجات البشرية كلها كما قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ...الآية**﴾ [المائدة:٣].

٣- لأن الأمة جربت كل مناهج الضلال، ومذاهب العلمانية والإلحاد، وفتحت باب الشهوات على نفسها، وأعرضت عن الكتاب والسنة، وخلفت الأخلاق والقيم وراء ظهورها، فماذا كانت النتيجة؟ أنها صارت إلى ما صارت إليه اليوم مما وصفناه وقدمناه آنفًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

٤- لإزالة شبهات الطاعنين وردها: وذلك نظرًا لأن الإسلام هو الدين الذي ختم الله به الرسالات والشرائع السماوية، وكان آخر حلقة في سلسلة اتصال السماء بالأرض فإنه بصفة خاصة يتعرض أكثر من غيره لإثارة الشبهات حوله، والطعن في أصوله وثوابته خاصة القرآن والسنة وكذلك الطعن في ناقلي هذا العلم من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وما ذاك إلا لأن القرآن: ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة:٤٨].

والشبهات التي تثار ضد الإسلام منذ كان وحتى اليوم مكررة ولا تختلف مع بعضها إلا في الصياغة، أو محاولة إعطائها صبغة علمية زورًا وبهتانًا والعلم منها براء، وقد نهض مفكرو الإسلام وعلماء السنة بالقيام بواجبهم في الرد على هذه الشبهات كل بطريقته الخاصة، وبأسلوبه الذي يعتقد أنه هو السبيل الأقوم للرد.

٥- لأن مدار السعادة في الدنيا والآخرة قائم على الالتزام بهما والاعتصام بحبلهما، وهذه السعادة إنما تكون لمن أرادها وبحث عنها في مظانها، وذلك لأن العبد إذا عرف ربه وآمن به حقًا، وصدق برسله يقينًا، فإن يلتزم بشرعه الذي أنزله، تطيب حياته، ويسعد بعد مماته كما قال عز وجل: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى**﴾ [طه:١٢٣].

وخلاصة القول أن السعادة في الالتزام بشرع الله تعالى ودينه، وما شرعه ودينه إلا الكتاب والسنة، والالتزام بهما في طول الحياة الإنسانية وحتى الممات بإذن الله تعالى، لكل هذه الأسباب ولغيرها أيضًا نعلم جيدًا لماذا نطالب بالعودة إلى هدى الكتاب والسنة المطهرة، وإلى تحكيم الشريعة الحقة شريعة القرآن والسنة.

* * *

ثالثاً: الدعوة الإسلامية ونشأة الحركات والجماعات الدعوية:

نقول بداية إن الدعوة إلى الله تعالى من أجل شرائع الإسلام الحنيف الذي بعث به لبنة التمام ومسك الختام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه الدعوة ضاربة بجذورها في عمق التاريخ البشري.

فليست كما يظن البعض ويعتقد أنها نشأت من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا خلاف ما جاء في القرآن والسنة من قصص الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله تعالى لتبليغ دينه وشرائعه إلى العالمين، ولإقامة منهج الله تعالى المنزل عليهم وسيادته على كل منهج بشري أو طاغوتي مخالف لمنهج الله تعالى ورسالته.

وهذه من كبرى حقائق الدعوة التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهان وعقول الدعاة إلى سبيل الله ورسله. فتاريخ الدعوة كما بينه الله تعالى في كتاب المنزل - القرآن - كانت أولى خطواته في مسيرة الحياة البشرية الطويلة في زمان نبي الله ورسوله نوح عليه السلام.

لأن البشرية ظلت على فطرتها التي خلقها الله تعالى عليها بالتوحيد لله تعالى منذ أول البشرية آدم عليه السلام، واستمسكت بها زمانا طويلاً كما ذكرت كتب القصص والتاريخ ما يقرب من ألف عام.

حتى بزغ الشيطان بشركه وتلاعبه في العقول بأن يصرفها عن عبادة خالقها وموجدها سبحانه وتعالى، والمتأمل لآيات القرآن وقصص الأنبياء تظهر له هذه الحقيقة جلية واضحة لا لبس فيها ولا غموض، كما قال تعالى: "**إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذابَ أليم**". ثم توالت الرسالات والنبوات من بعده تترى لإعادة البشرية السالكة في طريق الشيطان والخسران إلى طريق النجاة والإيمان، والعبودية لله وحده المستحق لها بلا منازع أو شريك.

فالدعوة إذاً هي طريق الأنبياء والمرسلين، وهي كذلك طريق الدعاة والمصلحين ومن ثم بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وأورثها الله تعالى لنا من بعده ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ...الآيات**﴾.

وهذه كذلك حقيقة أخرى لابد من الوقوف عليها وإدراكها، حتى لا يتفلت أحد منها ومن أعبائها الثقيلة الموكلة إلينا ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾.

ومن ثم ورثت الأمة الإسلامية اليوم هذه التبعة الثقلية، والرسالة الجليلة، وقامت جهود الدعاة هنا وهنالك تنادي بواجب الدعوة إلى الله تعالى ووجوب العودة إلى منهج الحق والإسلام الذي به صلاحنا في الدنيا والآخرة وبه هدايتنا وسعادتنا كذلك، فقام رجال ممن حملوا على عاتقهم حمل الرسالة وتبليغ الأمانة، بجهود كثيرة ومحاولات كبيرة، لإعادة الأمة إلى الكتاب والسنة وتحكيم شريعة الله تعالى وجعلها منهج حياة، يحكم الواقع البشري كما أراده الله تعالى لها.

وكان قيام ذلك بشدة بعد توالى الحملات التتارية والصليبية وكذلك الصهيونية على العالم الإسلامي بعدة غارات ومكائد وحروب، كان من نتائجها سقوط الخلافة الإسلامية بقيادة الدولة العثمانية، وقيام العميل اليهودي مصطفى كمال أتاتورك بالوصول إلى مقاعد السيادة والحكم بعد قرار إلغاء الخلافة الإسلامية، ومن ثم تم تمزيق العالم الإسلامي والعربي إلى دويلات ممزقة، يفصل بينها حدود جغرافية مصطنعة، وما ذلك إلا لاحتواء العالم الإسلامي وإحكام السيطرة عليه وضربه في أي وقت بيد من حديد وتطويعه لمطامعهم ومكائدهم وأحقادهم..

فقام المسلمون في فزع من غفلتهم ورقادهم على إثر ذلك، وبدأت هنا وهنالك جهود فردية وغيرها ربما شابها تلك الأخطاء والهنات، التي جعلت طرائق الدعوة مختلفة لأنها من نتاج أفهام وعقول مختلفة في دقة فهمها واستنباطها للأحكام والمناهج التي يريدون أن تكون لهم كالقاعدة في البناء والدعوة إلى الله تعالى وتحكيم شريعة الإسلام.

فنشأت مناهج دعوية مختلفة في الوسائل والأفكار، وإن كان لا يخفى علينا وجود جهود قريبة أو بعيدة منها قبل أو بعد ذلك وهذا أمر تاريخي واضح، لكنها لم تكن بالقدر الذي نشأ بعد عهود الضعف والاستعمار، فنشأت جماعات دعوية كالإخوان في مصر والتبليغ التي كان مبدأ أمرها من بلاد الهند والجماعة الإسلامية والجهادية وغيرها، ومن قبل أنصار السنة، وكذلك في الجزائر والمغرب، ولكل وجهة هو موليها، فهذه الجماعة ترى في مناهجها وأفكارها أنه المنهج الأفضل الذي يمتلك مقومات العودة إلى سيادة الحكم وعودة خلافة الإسلام، وكذلك ترى الأخرى

وهكذا تفرقت الجماعات باختلاف المناهج والتصورات لمنهجية العمل الدعوي المناسب للعودة إلى حياة إسلامية نظيفة واستئنافها في ظل مناهج الإسلام الحاكمة.

وحسب أصحابها أن نظن فيهم الخير وحب الإسلام، الذي ربما بدا لنا من جهودهم وحركتهم للدعوة الإسلامية، لكن الإخلاص وحده لا يعفي صاحبه من تبعة الحق الثقيلة من الاتباع الصحيح القائم على علم وفقه صحيح قائم على الكتاب والسنة، موافق لمراد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فهذه المناهج الدعوية جلها يزعم الوقوف على الكتاب والسنة، والعمل الدعوي والمنهجي الصحيح ولكن أنى لهم ذلك، فنصوص الكتاب والسنة لا بد من شهودها لصاحب العمل بصحته وصحة فهمه وعمله. فالثلاثة الذين ذهبوا إلى بيوت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته خير شاهد على ما أشرت إليه هنا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "**جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني. نعم**". متفق عليه. فإخلاصهم في العمل وحرصهم على التعبد لله تعالى بما لم يتعبد به رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يعفهم من كونهم خالفوا منهاج النبوة الوسطي الذي جمع بين عبادة القلب والجوارح واستقامتها، وبين شؤون الحياة الدنيا ومصالحها، ولهذا قام النبي صلى الله عليه وسلم بالتعقيب والتوجيه ومن ثم التحذير من المخالفة لما جاء به من الهدى والشريعة، وكون المخالف لن يصل إلى شيء مما أراده بغير الطريق التي يسلكها رسوله ونبيه صلى الله عليه وسلم، وإن حسنت نيته ونقت سريرته، لكن لا بد من أن تستقيم أيضاً طريقته.

فهذه المناهج الدعوية المختلفة في كثير من مناهجها وتصوراتها وقعت فيما وقعت فيه هؤلاء الثلاثة وهم يظنون أنهم على شيء، وأنهم أردوا الهدى والهداية

للخلق ولن يدركوا ذلك بغير الطريق الذي أشرنا إليه آنفاً، وهذا هو ما دل عليه صريح القرآن وصحيح السنة فمن ذلك قول الله تعالى: "**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**"، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "**افترقت اليهود**"... إلى قوله..."**ما أنا عليه وأصحابي**". فهذه الجماعة التي تقوم اليوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى لا بد لها من لزوم منهاج النبي صلى الله عليه وسلم.

وثم أصل آخر ألا وهو طريق أصحابه رضي الله عنهم جميعاً، وهذا الطريق أكد عليه القرآن بشدة في كثير من آياته الكريمة كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء:١١٥]، فما هو سبيل المؤمنين غير سبيل الصحابة ومن تبعهم رضي الله عنهم جميعاً، وكذلك نصوص السنة النبوية "**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين....الحديث**".

لماذا؟ لأن التفرق ما وقع في الأمة إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ووجد ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم، ثم تشعبت الفرق والمذاهب والأهواء بداية من القدرية والخوارج والمرجئة والمعتزلة والشيعة والصوفية إلى أن تعددت الفرق والنحل المختلفة وتشتت بين الأمة الإسلامية. ومن ثم كان ولا بد ممن يظهر بالحق ويصدع به ويعتصم بمنهج النجاة من ضلالات هذه الفرق والأهواء، فكان من لزموا الصراط المستقيم من أهل السنة والجماعة وقاموا بالذود عن شريعة الإسلام الصافية، ووقفوا حراساً عليها أمناء، يحققون ويدققون وينقبون، حتى لا يختلط الحابل بالنابل كما يقال، وكانوا يقولون سموا لنا رجالكم حتى نعرف حالهم، فوقفوا حيث جاءت نصوص الوحيين الصافيين من الكتاب والسنة ولزوم ما كان عليه الصحابة الكرام وعملهم وإجماعهم، ووقفوا عند مراد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولزموا السكوت والتأويل فيما سكت فيه الصحابة، وانتهوا عن التعمق والتكلف فيما لا علم لهم به.

واليوم جاء دورهم في وسط هذا الخضم الكبير من هذه الفرق والمذاهب، فأهل السنة ملازمون لطريق الدعوة، لا يتخلفون عنه ولا يحيدون، وبه وبأمر الله قائمون، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم وإن قل عددهم وتفرقوا في البلاد، منصورون

قائمون، وإن باعدت بينهم الأقطار والأمصار وكذلك الأعصار، جاء دورهم لريادة دعوية مستقيمة سديدة، لا يشوبها شيء من المخالفات، ولا البدع والأهواء.

نعم فالجماعات الإسلامية اليوم نتمنى لهم تصفية مناهجهم وتصويب أخطائهم فلا بد للعبد من الزلل، ولا حرج من إعادة النظر فيما خالفوا فيه وزلوا، ولا حرج من تقويم مسيرة الدعوة الإسلامية في مناهجهم وتصوراتهم، لتستقيم على منهاج النبوة الأولى وطريق الصحابة رضي الله عنهم.

وإن كان منهم من يعد من أهل السنة ومحسوب عليهم فلينظر هل ما لديه متوافق حقاً مع منهج أهل السنة والجماعة، وهل الذي عليه اليوم هو "**هو**" ما قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم "**ما أنا عليه وأصحابي**".

نعم الدعوة إلى الله تعالى ليست مناهج تكتيل وتكديس للأعداد حولها وحسب، إنما هي منهج حياة كبير، وجذر ضارب في التاريخ البشري بطوله، فعلى جنود الدعوة – وهذا نداء لا بد منه – أن يفرقوا بين ما تصوروه ووضعوه في منهاج دعوتهم وبين ما جاءت به نصوص الكتاب والسنة من لزوم الكتاب والسنة وطريق الصحابة أولاً ثم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ولا ريب أن الدعوة إلى الله تعالى من أشرف الأعمال عند الله تعالى،والاستقامة على أصولها من الثوابث الأصيلة منهج واجب الاتباع ولا تجوز مخالفته.

وإن أولى الناس بهذا الاتباع هم أهل السنة والجماعة الذين تميزوا عن سائر فرق أهل البدع والأهواء، فأهل السنة اليوم هم في خندق حقيقي كبير، وحرب ومكائد مختلفة المشارب.

فأهل الكفر أعداء لهم، وأصحاب الفرق والضلالات والبدع كذلك أعداء لهم، بل وهناك من جلدتهم من هم أعداء لهم، وباسم الكتاب والسنة يتكلمون، والعلمانيون والمنافقون أعداء لهم وهكذا، وقف الكل لهم بالمرصاد يناصب لهم العداء ويكيد لهم الحقد والمكر.

فيا أيها السالكون طريق الدعوة إلى الله، المنهاج واضح، والطريق لائح، والحادي صائح، فهل أنتم متحدون؟، وهل أنتم حقاً للإسلام راغبون؟، فإن كان الجواب: نعم، فلم الاختلاف والتناحر، ولم الصياح والتشاجر، فهل أنتم معتصمون؟.

إن طريق الدعوة طريق الدعاة والمصلحين، وأهل السنة أولى به من غيرهم، وأصول طريقهم ترجع اليوم إلى ثلاثة أصول كبرى: الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وما سوى ذلك اليوم من مناهج وأفكار وتصورات على طريق الدعوة لن يكون لها الحظ الأوفر في هذا الطريق، فقد جربت الأمة المناهج والتصورات بعيداً عن هذه الأصول. فلا زالت تتفرق وتتشرذم وتتباعد وتتناحر، والعدو لا ريب هو الفائز في هذه المعركة الكبرى معركة التوحيد والكفر، فائز حقاً من تفرقنا بغير منهاج ولا بصيرة، وإنما نصرنا عليه، وغلبتنا له تكون بالاعتصام بأصول الطريق وإن تفرقت المشارب والأهواء، والحق في كل حاله منصور لأنه الحق، ومحفوظ من الحق، فهل ممن مجيب، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾. والله المستعان.

* * *

الفصل الرابع

منهج السلف

بين أهل السنة والجماعة وموقف المخالفين

الفصل الرابع

منهج السلف

بين أهل السنة والجماعة وموقف المخالفين

تقدم معنا أن تاريخ الدعوة الإسلامية تاريخ طويل، وأن طريق الدعوة طريق الدعاة والمصلحين، وأهل السنة أولى به من غيرهم.

وأصول طريقهم ترجع اليوم إلى ثلاثة أصول كبرى: الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

ولكن نحتاج هنا بعد هذا التأصيل الكبير في تاريخ ومنهج الدعوة أن نبين أصلاً كبيراً في هذا المنهج الدعوي، وأن نقف معه قليلاً بالبيان والتأصيل ألا وهو كون الصحابة رضي الله عنهم ميزان أهل السنة والجماعة اليوم.

وأن اتباعهم من أصول الشريعة الكبرى، التي تنبني عليها الأدلة والحجج والبراهين في بيان طريق أهل الحق من طريق غيرهم من أهل البدع والأهواء والزيغ والضلال فنقول:

* * *

أولاً:الصحابة ميزان أهل السنة والجماعة:

الصحابة أولاً: هم تلك الكوكبة المنيرة، والأقمار المضيئة، والنفوس الزاكية، والقلوب الطاهرة، والهمم العالية، والإرادة الصادقة، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وصاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرواحهم وأنفسهم، وآمنوا به وصدقوا رسالته، وصبروا معه على الأذى والكيد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وجاهدوا معه بكل مقومات الجهاد، من جهاد بالكلمة والبيان، وجهاد بالسيف والسنان، وجهاد بالأموال والأنفس.

إنهم الذين عاينت أعينهم خير المرسلين، وصحبت أنفاسهم أنفاسه، وكلماتهم كلماته، وآثارهم آثاره، وخطواتهم خطواته رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، حتى نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة:١٠٠]،

إنهم المبلغون عن الله ورسوله ما جاء من شريعة الإسلام، ومن ثم فإن فهمهم لنصوص الوحيين الكتاب والسنة مقدم على فهم غيرهم، وعلمهم بالكتاب والسنة وتأويلهم مقدم على علم غيرهم وتأويلهم، لأنهم أول من تلقوا الوحي، وشهدوا التنزيل، ولأنهم كانوا ولا ريب أحرص الناس على التلقي من ذلك المورد العذب، فقد آتاهم الله تعالى حفظاً وفهماً، ودعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وكانوا لا يأخذون العلم إلا تصديقاً وعملاً بعد أن يثبت لهم ويأتيهم الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وكانوا يشددون على اتباع السنن، واقتفاء الأثر، ولزوم السكوت عما سكت عنه الله ورسوله.

والمخالفون لمنهجهم وطريقهم ولا ريب واقعون في الفتنة، مستشرفون لها كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء:١١٥]، فدلت الآية على وجوب متابعة سبيل المؤمنين والحذر من الوقوع في الوعيد لمخالفة هذا السبيل الذي سلكوه، وكما ذكرت كتب اللغة والتفسير أن السبيل هو الطريق، وأن أول المؤمنين الذين سلكوا طريق الإيمان والمتابعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم هم الصحابة رضي الله عنهم.

فهم أول من عرف الإيمان والتسليم وكذلك السمع والطاعة وكذلك أيضاً الاتباع للأثر، ولهذا جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم الميزان الحق حين وقوع الفتن والافتراق في أمته كما جاء في الحديث المحفوظ المشهور حديث الافتراق الذي وقعت فيه الأمم، والذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما**

أنا عليه وأصحابي". وفي بعض الروايات: "**هي الجماعة**" رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال عنه ابن تيمية: هو حديث صحيح مشهور، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. وعلى هذا فالحديث صحيح.

فهذا من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم من كونه أخبر بما سبق ووقع في الأمم التي تفرقت في دينها، وبما سيقع أيضاً في أمته، فالحديث خبر في سنن الله تعالى القدرية والكونية التي تصيب الأمم بسبب المخالفات التي تقع منهم لمنهج الله ورسله عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ [الأنعام:١٥٩].

وليس كما يقع في بعض الأفهام القاصرة عن إدراك المعنى المراد منه، فتظن أن المراد الرضى بهذا التفرق، وأنه لا مناص منه وأنه لا داعي لرفعه وإزالته لأنه داخل في باب السنن الربانية، ولا شك أن الفهم بهذا نوع من الانحراف في فهم دلالة هذا النص وغيره من نصوص الكتاب والسنة.

* * *

الصحابة ميزان أهل السنة والجماعة .. لماذا..؟.

فالصحابة اليوم بعد هذا التاريخ الطويل في مسيرة دعوة الإسلام، وبعد هذا التفرق الذي وقع اليوم بسبب الانحراف عن الفهم الصحيح للأدلة القرآنية والنبوية، أقول صار الصحابة هم الفيصل الحق، والميزان الصحيح لتقويم مسيرة دعوة الإسلام الطويلة والجليلة طيلة هذه القرون، **لماذا؟.**

أولاً: لأن كل الفرق المنسوبة للإسلام اليوم تحتج علينا بالكتاب والسنة، فإذا أردت تأصيل منهج أو رد بدعة أو مخالفة ليس لها من الأدلة والنصوص ما يشهد لها أو يثبت شرعيتها، وجدنا هنا أصحابها يوردون لنا من الأدلة وعمومياتها ما يثبت صحة طريقتهم ومنهجهم في الدعوة إلى الله تعالى، أو يثبت صحة مذهبهم ومعتقداتهم التي يريدون لها أتباعاً وأنصاراً.

فالشيعة مثلاً يحتجون لصحة لمذهبهم وطريقتهم بأدلة من الوحيين، ولم يقفوا عند هذا بل قام أناس منهم بالتدليس، والوضع لكثير من النصوص النبوية التي تثبت مكانة أهل البيت، خصوصاً مكانة علي وفاطمة والحسين رضي الله عنهم، بل ووضعوا نصوصاً أخرى كاذبة من أقوال الأئمة والعلماء وكذلك التلفيق فيها في هذا الباب وأنهم على حق في إمامة علي رضي الله عنه، حتى غلوا فيه وقالوا فيه الكثير مما لا أصل له في شريعة الإسلام، ولسنا هنا في معرض بيانها، ومع هذا يستدلون بالكتاب والسنة.

وكذلك الخوارج والمعتزلة، وقس على ذلك أصحاب المدارس والمذاهب الفكرية والعقلية، الذين يأتون بنصوص الوحيين في إثبات العقل ورفع مكانته وعلو قدره حتى يصادموا بهذا العقل نصوص الكتاب والسنة، ومن ثم يهدمون هذين الأصلين بما سموه أدلة في إعلاء العقل، حتى يصير العقل هو الحكم الفصل على الأدلة الشرعية فتبطل الشريعة والأحكام بهذا.

أما على الجانب الآخر في الجماعات الدعوية اليوم، فذات المنهج يكون لديهم في إيراد الأدلة والأقوال والتكثير منها ولو كانت ضعيفة الإسناد، وكل ذلك لإثبات أنهم أصحاب دعوة صحيحة لم يخالفوا فيها كتاباً ولا سنة ولا أثراً عن الأئمة وأهل السنة، وهذا ولا ريب نوع من الاستدلال الذي لا تقوم به الحجة.

لماذا..؟ لأن الكل صار يحتج بالكتاب والسنة، ويقف عند هذا الحد ففي أي الموازين إذا يكون الفصل، وفي أي المسالك والفرق والجماعات هذه يكون الصواب والحق، وفي أي الاتجاهات يكون السير والعمل، إذاً لا بد من حكم فصل يحسم مسار الدعوة ومنهجها، ويقوم مسيرتها، إنه ولا ريب مسلك الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم في القرون المفضلة الأولى، وهذا كما ذكرنا من قبل له من الشواهد والأدلة والبراهين من نصوص القرآن والسنة الكثير والكثير، وحسبنا أن نورد هنا بعضاً منها:

فمن ذلك: إيجاب القرآن اتباع الصحابة رضوان الله عليهم ولزوم طريقتهم، وتوعد من يخالف سبيلهم بالعذاب الأليم، قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ**

﴿مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٧]، وهل كان المؤمنون عند نزول هذه الآية الكريمة إلا هم؟

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. هذا دليل صريح في أن الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم هو الهدى والحق، ومن اهتدى به فإنه على هدى وعلى صراط مستقيم، فالصحابة هم المعنيون بما في الآية أولاً، ثم من سار على دربهم واقتدى بهم من بعدهم ثانيًا. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. والصحابة رضي الله عنهم هم أول أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فهم على سبيل النبي صلى الله عليه وسلم يدعون إلى الله على بصيرة. وكذلك ثناء الله عز وجل عليهم ورضاه عنهم، قال الله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]. وتزكية الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، فقال صلى الله عليه وسلم: "**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**". متفق عليه، فهذه الآيات والأحاديث دليل على أنهم على هدى وخير وأنهم أهل للاقتداء والاتباع.

ومن الأدلة أيضاً: أن الصحابة هم الجيل الوحيد الكامل الذي لم يكن منهم مبتدع، وإنما ظهرت البدع فيمن بعدهم في آخر عصرهم. وفي حديث أبي سعيد الخدري

رضي الله عنه، في وصف الخوارج: "**يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ**". رواه البخاري ومسلم، ولم يقل: منها، لأنه لا يخرج من الصحابة هؤلاء القوم، ولكن يخرج في عصرهم رضوان الله عليهم.

ولذلك لما أراد العلماء أن يُعرِّفوا البدعة نصوا على أن البدعة هي: ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا، فهذه هي البدعة الموصوفة بأنها الضلالة. وقد كثر الاختلاف والتفرق بين المسلمين بعد عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم، وكل فرقة تفسر النصوص على فهمها، فتجدهم مختلفين في ذلك، وكل فرقة تدعي أن فهمها للنصوص هو الحق، فمن نتبع؟..

الجواب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**" حديث حسن، رواه عدد من الأئمة منهم الترمذي وأبو داود في سننهما، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "**وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**"، **قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال**: "**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**" حديث حسن، فهذه أدلة صريحة على أن الحق هو اتباع منهج وفهم الصحابة رضوان الله عليهم للنصوص الشرعية.

أما الأدلة العقلية: **فمن ذلك**: اتفاق أقوال الصحابة رضي الله عنهم في الأصول، فلم يحصل بينهم اختلاف في أصول الاعتقاد وأصول العبادات وأصول النظر والاستدلال. ومن ذلك: إجماع الصحابة على إثبات الصفات، وإجماعهم على وجوب قبول السنة واتباع ما صح منها وعدم رد شيء منها، وإجماعهم على عدم تكفير مرتكب الكبيرة، وغير ذلك.

ومن ذلك: أنهم عرفوا حقيقة الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها، لأن بعضهم عاشها بنفسه، والآخرون كانوا حديثي عهد بها، نقلها إليهم أهلوهم وأقاربهم، فلما جاء الإسلام ميزوا بينه وبين الجاهلية.

ومن ذلك: أن السلف الصالح تلقوا الإسلام وتعاليمه صافية نقية، لم يخلطوها بثقافات وافدة من أديان وثنية أو كتابية محرفة، أو فلسفات وضعية، أو علوم كلامية أو غير ذلك.

ومن ذلك: أنهم تلقوا القرآن غضًا طريًا، وهو ينزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وعاينوا الأحداث التي مرت بهم وكانت سببًا لنزول كثير من آياته وسوره، فأدركوا مناسبات الآيات، وسياقها ووجهتها، وتفاعلوا معها، وفهموها حق فهمها، وهذا أيضًا جانب آخر مما امتازوا به على من جاء بعدهم.

ومن ذلك: أنهم سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة دون واسطة، فغالب ما نقلوه عنه أخذوه من فيه، وسمعوه، وأدركوا مقصده ووجهته، وعرفوا مناسبة وروده. التابعون وتابعوهم هم أقرب القرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتابعون عاصروا الصحابة رضوان الله عليهم وأخذوا العلم عنهم. كما أن البدعة في عصرهم كانت أقل من البدعة في العصور التي بعدهم.

وأما الآثار[١]: تلك الآثار عن الصحابة والسلف الصالح والأئمة بلزوم ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه عامة السلف الصالح: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم، كل بدعة ضلالة" .[٢] وقال الأوزاعي: "اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم".[٣]

وقال: "عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريقٍ مستقيم". رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث، والبيهقي في المدخل إلى السنن، وروى جزء منه الآجري في كتابه الشريعة.

---

(١) بحث لأحد الدعاة وقفت عليه من زمن.
(٢) انظر كتاب الزهد لوكيع بن الجراح.
(٣) انظر كتاب الشريعة للآجري.

وكان الحسن البصري في مجلس فذكر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال: "إنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفا، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فإنهم ورب الكعبة على الهدى المستقيم" .(١) وقال الإمام أحمد بن حنبل: "إن الله جَلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه بعث محمدًا نبيَّه صلى الله عليه وسلم **﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** [التوبة : ٣٣]، وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله – صلى الله عليه وسلم – الدال على معنى ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصِّه وعامِّه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب. فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو المعبر عن كتاب الله، الدال على معانيه، شَاهَدَهُ في ذلك أصحابه، من ارتَضَاهُ الله لنبيه واصطفاهُ لَهُ، ونَقَلوا ذلك عنه، فكانوا هُم أعلَم الناسِ برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وبما أخبر عن معنى ما أراد الله من ذلك بمُشاهَدَتِهِم ما قَصَد لَه الكتاب، فكانوا هم المُعَبِّرين عن ذلك بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم"(٢) . وقال الإمام ابن أبي زيد القيرواني في رسالته: "واللجأ إلى كتاب الله عزوجل وسنة نبيه، واتباع سبيل المؤمنين، وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس نجاة، ففي المفزع إلى ذلك العصمة، وفي اتباع السلف الصالح النجاة".

وقال الإمام أبو القاسم اللالكائي في مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: "أما بعد: فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول، وأوضح حجة ومعقول، كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون". وقال ابن حجر العسقلاني: "فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف واجتنب ما

(١) نفس المصدر.
(٢) طبقات الحنابلة. لابن أبي يعلى بتحقيق الفقي(ج٣/١٢٢).

أحدثه الخلف". [١] وقال الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بشاه ولي الله: "والملة إنما تثبت بالنقل والتوارث، ولا توارث إلا بأن يعظم الذين شاهدوا مواقع الوحي وعرفوا تأويله وشاهدوا سيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم ولم يخلطوا معها تعمقًا ولا تهاونًا ولا ملة أخرى" [٢].

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: "ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فيهم يأتم من صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم، وكونه معهم". [٣]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقد دل الإجماع على أن خير هذه الأمة في الأقوال والأعمال والاعتقاد، وغيرها من كل فضيلة، القرن الأول، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وأنهم أفضل من كل خلف في كل فضيلة من علم وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أول للبيان من كل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم" [٤]. فكل هذه الأدلة وغيرها تجعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم هم الميزان الصحيح وقت الفتن ووقوع الافتراق في الأمة الإسلامية، بل وتوجب متابعتهم لما كانوا عليه قبل وقوع هذه الفتن والافتراقات والمذاهب، لأنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ثانياً: لأن الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية، والوقوف أمام المد الجارف من كيد أعدائها وتربصهم بها، وكذلك عصمتها من البدع والأهواء الناشئة من الفرق والجماعات، إنما يكون – هذا الطريق إلى الوحدة – حول الأصول والثوابت العاصمة من التفرق والتشرذم في شريعة الإسلام، وهذا أمر مقرر شرعاً وعقلاً، فالأصول في شريعتنا متفق عليها بين أهل السنة والجماعة ولا خلاف فيها وإلا صار تفرقاً مذموماً.

أما المسائل التي اصطلح بعض أهل العلم بتسميتها بالفروع فالاجتهادات فيها أكثر من أن تنضبط كما قرر وصرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكذلك

(١) فتح الباري. لابن حجر(ج١٣/٢٦٧).
(٢) حجة الله البالغة.للدهلوي(ج٢/٣٣٣)
(٣) إعلام الموقعين. لابن القيم.
(٤) الفتاوى لابن تيمية.(ج٤/١٥٨،١٥٧)

أشار إليها أبو إسحاق الشاطبي الأصولي الفقيه في الموافقات وكثير من أهل العلم رحمهم الله جميعاً. فأمة النبي صلى الله عليه وسلم متفقة على أن اتباع الصحابة من الأصول الثابتة بنصوص الوحيين المعصومين الكتاب والسنة كما أسلفنا آنفاً.

كما أن عمدة نقل الشريعة موقوف عليهم فهم الذين نقلوا لنا القرآن بالقراءات المتواترة الثابتة الصحيحة، وهم الذين علموها ونشروها بين الخلق، وكذلك هم الذين كانوا أول من تكلم بعد النبي صلى الله عليه وسلم في بيان وتفسير كلام الله تعالى من أمثال سيدنا عبد الله ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، ووقفوا على بيان أسراره وآدابه وشريعته. كما أنهم الذين نقلوا لنا بعلمهم وعدالتهم ودقة حفظهم السنة النبوية، وكتبوا فيها الصحف والدواوين، ورووا النصوص الكثيرة منها على أنهم تفرقوا في البلاد والأمصار، وحملوا هذا النور الذي بين أيديهم إلى العالمين، ففتحوا به القلوب والبلاد والعباد.

فالصحابة أصل الشريعة وعمادها، وأساس في نقلها وحفظها، فهم بذلك صاروا من الأصول التي تجتمع عليها الأمة إلا من شذ وخالف من أهل البدع والأهواء والضلال، فاجتماع الأمة اليوم يجب أن يكون فيه طريق الصحابة ومنهاجهم الذي كانوا عليه قبل أن تتفرق الأمة فرقاً وأحزاباً وجماعات، لأن الكل يعظم الصحابة ويجلهم ويعلي لهم مكانتهم التي رفعهم الله تعالى إليها، ويكن لهم الإجلال والإكبار والتوقير فنحن مأمورن بذلك وحسبنا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**حب الأنصار من الإيمان**". ولكن قد يختلف العاملون في مسيرة الدعوة الإسلامية حول بعض مسائل متناثرة في طريقة التعامل مع أقوال الصحابة واجتهاداتهم في بعض المسائل والأحكام، وهذا وارد بضوابطه التي قررها كثير من علماء الأصول في كتبهم وقواعدهم، مع الوقوف عند إجماع الصحابة فيما اجتمعوا عليه ولا ريب أن إجماعهم حجة بذاته تقوم به الدلالة، وهذا متفق عليه بينهم.

ثالثاً: لأن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليسوا معدودين من أصحاب الفرق والمذاهب ولا حتى الجماعات، لأنهم في الأصل هم الأمة، هم كلهم حزب واحد سماه الله تعالى في كتابه: "**أولئك حزب الله**" وجعلهم سبحانه وتعالى ضداً ونداً لحزب

وعسكر الشيطان، وعسكر الجاهلية الشركية إلى يوم القيامة، فالمؤمنون كلهم حزب واحد إنه حزب الله تعالى، ويد واحدة وجماعة واحدة كما ورد أن المسلمين أمة من دون الناس فهم الجماعة المقصودة في الأحاديث النبوية، وهم يد على من سواهم من الناس.

فلا يعد الصحابة فرقة من الفرق ولا جماعة من الجماعات، إلا أنهم جماعة المسلمين وقائدهم ومعلمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. **وهنا نبين هاتين القاعدتين طالما نبهت عليهما كثيراً، وهما في الأصل يهدمان كل الفرق والمذاهب التي خالفت سبيل المؤمنين ومنهجهم إلى يوم القيامة:**

القاعدة الأولى: أن كل فرقة من الفرق وجماعة من الجماعات اليوم لها بداية منشأ وتأسيس، ولها تاريخ ومؤسس، صاغ لها المنهج والتصورات، ووضع لها الأصول والقواعد، وجمع لها الأدلة والشواهد لإثبات صحة مذهبه وطريقته.

وأهل السنة والجماعة ومن سار على طريقهم ليسوا كذلك لأنهم هم جماعة المسلمين الأم، فالخوارج لهم مبدأ وتاريخ، وكذلك المعتزلة والرافضة والجهمية والقدرية والأشاعرة والصوفية المنحرفة والمبتدعة، كل هذه الفرق لها مؤسس وتاريخ نشأت فيه في مسيرة دعوة الإسلام الكبيرة، ويدخل في تلك القاعدة أيضاً الجماعات الدعوية كالإخوان والتبليغ والجماعة الإسلامية وغيرها.

أما الصحابة فليسوا كذلك ولا هم من أهل هذا الطريق لأنهم وقفوا عند قوله تعالى: "**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله**"، فليس الصحابة جماعة ولها فكر ومنهج ومؤسس، إنما هم جماعة المسلمين التي لا تقبل التفرق داخل صفوفها، إنهم أهل الإسلام الذي أقاموا شريعته حق إقامته، فليسوا هم فرقة ولا جماعة لها تاريخ ومؤسس، إنما هم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وهم المسلمون حقاً وصدقاً، أما سائر الفرق فهي التي خالفت طريقهم وسبيلهم.

القاعدة الثانية: أن أصحاب الفرق والمذاهب لا يجعلون الدليل والنص مذهبهم يسيرون معه حيث سار ويقفون معه حيث يقف، كلا بل هم على خلاف ذلك. فهم يجتهدون ويؤولون ويجمعون من الأقوال والآراء ما يرون أنه الحق والصواب ثم

يجمعون له من الأدلة والشواهد والنصوص ما يؤيد قولهم ومذهبهم ولو خالفوا فيه الكتاب والسنة، وهذا جلي واضح في الغالب من أحوالهم، أو يتأولون النصوص، ولهذا لا يتغيرون عن أقوالهم ولا أقوال أئمتهم وأدلتهم ولو طال بهم الزمان إلا أن يروا في ذلك قوة ومصلحة لهم، فهم على قاعدة تمذهب ثم استدل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إنك تجد أكثر أهل الكلام انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع وبنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل على عدم اليقين" [١]. وصدق شيخ الإسلام. وهذا ولا ريب مخالف لما كان عليه الصحابة والسلف رضي الله عنهم، فلقد نقل عن الأئمة الأربعة قولهم: إذا خالف قولي أو مذهبي الحديث الصحيح فاضربوا بقولي عرض الحائط، فجعلوا الحديث والدليل هو عمدتهم ومذهبهم إذا صحة النسبة فيه والسند، فساروا مع الدليل.

ولهذا كان للإمام الشافعي رحمه الله مذهبين القديم في العراق والجديد في مصر وجمع فيه كتابه الأم المشهور المعروف، والإمام أحمد كان له في المسألة قولان وربما ثلاثة، وكثير على هذا الطريق من الأئمة والعلماء.

والمتأمل في واقع الدعوات والجماعات الإسلامية اليوم، يرى أن كثيراً منها لا يقف مع الدليل، ولا يسير حيث صار، إنما هم حقيقة الأمر مقلدون لشيوخهم وافقوا الحق أم خالفوه، مقلدون بشدة وربما شاب قلوبهم التعصب لمنهجهم وجماعتهم، وهذا إجحاف للحق، مخالف للكتاب والسنة.

فتعظيم نصوص الوحيين هو المنهج المتبع عند الصحابة وتابعيهم والأئمة الأعلام رضي الله عنهم، وآثارهم كثيرة أكثر من أن تحصى، أما كثير من هذه الفرق والجماعات اليوم، فلا تقف مع الدليل الشرعي، ولا تهتم به، إلا إن كان يثبت قولهم، ويؤيد مذهبهم.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية.(ج٤/٥٤)

فالمقصود إذاً بعد كل هذا: أن السبيل العاصم اليوم من الفتن والتفرق في الـدين، وأن الميزان الحق إنما يكون في متابعة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وفي الوقوف مع منهجهم وآثارهم وإجماعهم، وأن السعادة ولا ريب في هذا المسلك السديد، والطريـق الرشيد، وإلا فالدعوة الإسلامية اليوم ستظل معلقة بيـد أبنائهـا لا ظفـر ولا إخفـاق، وهذا ما لا نريده ولا نرجوه إنما نريد خلافة على منهاج النبوة وهذا هو السبيل إليهـا بأمر الله وحده. والله الموفق.

* * *

ثانياً: النصوص الشرعية بين منهج الصحابة وموقف المخالفين:

المستقرئ لتاريخ الدعوة الإسلامية منذ العصر الأول، والجيل القرآنـي الفريـد – جيل الصحابة رضي الله عنهم – ثم التابعين لهم ، ثم ظهور الفرق والمـذاهب والآراء المخالفة لمنهجهم ، ولما كانوا عليه قبل موت النبي صلى الله عليـه وسـلم، يـرى هـذه القاعدة الجليلة ألا وهي: تعظيم النصوص الشـرعية مـن الكتـاب والسـنة، واضـحة جلية في حياة الصحابة والتابعين وفي طريقة تعاملهم مع الكتاب والسـنة، لأن تعظـيم نصوص الوحيين هو المنهج المتبع عند الصحابة وتابعيهم مـن الأئمـة الأعـلام رضـي الله عنهم، وآثارهم كثيرة أكثر من أن تحصى.

ويدخل في تعظيمهم للنصوص الشرعية هذه القواعد الثلاثة:

- الإيمان بجميع النصوص الشرعية.
- رد التنازع إلى الكتاب والسنة.
- الإيمان بالمتشابه والعمل بالمحكم[(١)].

وهذه القواعد أو الأصول تحتاج إلى بيان ووقفـات حتـى تتضـح لنـا معـالم هـذا الطريق، وحتى نتبين الفارق الكبير بينهم وبـين المخـالفين لهـم مـن أصـحاب الفـرق والمذاهب، الـذين وقعـوا كـثيراً في دوائـر مختلفـة ومتناقضـة في طريقـة تعاملـهم مـع

(١) انظر كتاب منهج التلقي والاستدلال للشيخ حمدي عبد الله الفائز بجائزة أنصار السنة.

نصوص الوحيين الصافيين الكتاب والسنة، ومنهجهم وانحرافهم بسبب سوء الفهم والتأويل الباطل لها.

* * *

القاعدة الأولى: الإيمان بجميع النصوص الشرعية:

فالإسلام هو الشريعة الخالدة الباقية إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وهذا الدين تنبني أدلته وشرائعه على نصوص الوحيين: الكتاب المنزل [القرآن الكريم] والرسول المرسل [السنة النبوية].

ولقد وقف الصحابة رضي الله عنهم موقف التعظيم لهذين الوحيين، وموقف الإجلال والتسليم كما أخبر سبحانه وتعالى في كتابه عن أهل الإيمان الحق بقوله تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ [النساء:٦٥]. وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا....الآية**﴾ [الأحزاب:٣٦]، وآيات أخرى كثيرة في هذا الباب.

فحقيقة الإيمان لا تقف كما يتوهم البعض عند الاتباع الظاهر للنصوص الشرعية فحسب كلا، بل تتمثل هذه الحقيقة في كمال التسليم والإذعان لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكمال الرضى النفسي والقلبي بهذا الحكم الذي حكم به ، وهذا كمال الإيمان "**ويسلموا تسليماً**"، قال ابن كثير عليه رحمه الله في تفسيره: "يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال ﴿**ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾".

ولقد سلم الصحابة رضي الله عنهم لله ورسوله في كل حياتهم فجعلوا أنفاسهم ترافق أنفاسه، وتصاحب أرواحهم روحه، فتتبعوا الأثر، ولزموا الغرز. وما كان تسليم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم بالمحبة أكثر من

نفسه، إلا دليلاً على كمال الإيمان والمحبة والمتابعة، وكذلك تسليمه يوم الحديبية وموقفه وكلام النبي صلى الله عليه وسلم له.

وكلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه كذلك، بل وقول الصديق لما أخبر عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهد لئن كان قد قال ذلك، لقد صدق، وهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بها ودعوا ما قلته. ومثله بالمعنى جاء عن الإمام أبي حنيفة ومالك وأحمد وكثير من أهل العلم والتابعين رضي الله عنهم.

فقبول الوحي كله ظاهراً وباطناً مع التسليم والإذعان كان دأب الصحابة جميعهم رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان .

لكن المخالفين لهم، وقعوا في بلايا ومحن، لأنهم ما سلموا لله والرسول حق الإيمان والإذعان والتسليم، وما أحسنوا كمال الإيمان بجميع النصوص الشرعية من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فوقعوا في رزايا أصابتهم بأدواء وطوام، في عقائدهم ومناهجهم، وفي تعبدهم وسلوكهم، ولا ريب أن الوقوف على هذه الأدواء يحتاج إلى بسط وبيان، ولكن حسبنا أن نشير إلى بعض منها:

فمن ذلك: أنهم لا يأخذون بكل الأدلة الواردة في الكتاب والسنة عندما يوردون مسائلهم وتقريراتهم، وإنما يتناولون بعضها ويجزؤوها حتى يأخذوا ما وافق قولهم وبدعتهم وضلالهم، ولا يلتفتون إلى باقي الأدلة التي قد تخصص العام أو تقيد المطلق أو تبين المجمل، وقد ذكر ذلك الإمام الشاطبي رحمه الله بقوله: "كثيراً ما ترى الجهال يحتجون لأنفسهم بأدلة فاسدة وبأدلة غير صحيحة بالنظر إلى دليل ما".[١]

فالخوارج وقعوا في هذا الخلل الكبير وقطعوا بعض النصوص فكفروا بها العصاة والمذنبين وحكموا عليهم بالخلود في النار كالمشركين، وما تكفيرهم لعلي بن أبي طالب وبعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك ببعيد.

(١) الاعتصام للشاطبي(ج١/222).

وكذلك المرجئة وقفوا عند حد القول دون العمل تعميماً لقوله تعالى: "**فأثابهم الله بما قالوا جنات....الآية**"، وهذا لأنهم لم يروا أن الأدلة تنفعهم أو أنها سبب نجاتهم في الدنيا والآخرة، فزلت أقدامهم ، وأخطأت أفهاهم نصوص الوحيين، كما قال الإمام الشاطبي رحمه الله: "سمي أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهوائهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها ، والتعويل عليها".(١)

ومن ذلك : اتباعهم أهوائهم حتى ردوا بها نصوص الكتاب والسنة الثابتة الصحيحة، وخالفوا تأويل أهل العلم في مسائل تصوروها معارضة للعلم والنصوص وهذا ولا ريب نوع وضرب من اتباع الشيطان والأهواء، وعرض النصوص عليها، فما وافق أهوائهم قبلوه، وما خالفها ردوه ولو كان من أصح الصحيح، فردوا أحاديث الذبابة وسقوطها في الإناء، وردوا أحاديث المهدي الثابتة في كثير من دواوين أهل السنة وأولوها .

ومنهم من تأول المسيح الدجال كذلك حتى بلغني أن كاتباً كتب كتاباً يثبت فيه أن الدجال هو السامري الذي كان في زمان نبي الله موسى عليه السلام، وهؤلاء هم أصحاب المدرسة العقلية المزعومة الذين جعلوا عقولهم هي الحكم الفصل، وأهوائهم هي الدليل والبرهان الذي لا يخطئ فكانت البلية كما قال ابن القيم رحمه الله: "فجعلوا المتشابه من كلامهم هو المحكم ، والمحكم من كلام الله ورسوله هو المتشابه، ثم ردوا متشابه الوحي إلى محكم كلامهم وقواعدهم."(٢)

ولا أدري كيف استطاعوا أن يجهروا بهذا الباطل من القول، ويخالفوا قول رسول الله وقول أئمة الهدى من بعده، ونسأل الله العصمة من الفتن.

ومن ذلك أيضاً: هذه الفرقة التي سمت نفسها بالقرآنيين، الذين نفوا السنة النبوية وألقوها وراء ظهورهم نفياً وإعراضاً وسخرية، وقالوا ما نفعل بالسنة وعندنا كتاب الله فيه الحق والنور، وفيه البيان الشافي والكافي، ووقفوا عند ذلك ليوهموا

(١) نفس المصدر(ج٢/176).
(٢) الصواعق المرسلة(ج٣/٩٩٠).

الجهلة والرعاع أنهم متبعون للكتاب، ملازمون للحق والصواب ، ولكن هيهات هيهات.

كيف يتبعون القرآن فحسب وهم يقرأن مئات الآيات التي تخبرهم وتأمرهم بوجوب متابعة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وحكمه وشريعته، وحسبهم أن يقرأوا قول الله تعالى: **﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا...الآية﴾** ...وقوله: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ...الآية﴾**.

وهؤلاء الذين أطلوا علينا في هذا الزمان أخبر عنهم رسول الله في قوله: "**لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر مما أمرت به، أو نهيت عنه ، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**" أخرجه الترمذي بسند صحيح. وهذا ما وقع فيه القوم.

ولا ندري من أين سيأتي أمثال هؤلاء بأركان الوضوء كلها وسننه وآدابه، ومن أين سيأتون بعدد ركعات الصلوات وسجودها وسننها وآدابها، أو الزكاة والحج والصيام، من أين سيعلمون أن الجمع في الزواج بين المرأة وعمتها أو خالتها محرم شرعاً، أو تحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطيور، أو، أو، إلى آخره. وما كل هذه البلايا والطوام، وهذه الرزايا العظام إلا من جراء نقض أو نقص هذه القاعدة الجليلة من كمال التعظيم والتسليم لنصوص الشرع الحنيف من كتاب الله وسنة رسوله في قلوبهم، وكما أخبر سبحانه في كتابه عن أمثال هؤلاء: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور:٦٣].

وهنا يظهر لنا الفارق الكبير بين هذه الفرق والأهواء وبين الصحابة رضي الله عنهم في كمال تعظيمهم وتسليمهم للنصوص الشرعية، وكمال الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة دون ترك شيئاً منها ، ولا حتى ترك العمل بها.

القاعدة الثانية: رد التنازع إلى الكتاب والسنة:

فالتنازع في المسائل والاجتهادات أمر وارد عقلاً وشرعاً، وليس المقصود الاختلاف في أصول الدين والشريعة وثوابتها، إنما فيما جاز فيه الاختلاف من المسائل

والأحكام، بسبب اختلاف الأفهام والعقول، وكذلك بسبب طرق قبول الأدلة وصحتها من عدمها، ويدخل في ذلك تأويلها على وجوه متفقة أو مختلفة، وقد أشار كثير من أهل العلم إلى هذه الأسباب التي تجعل الاختلاف والتنازع أمر وارد بحسبه.

ولذا وجب رد الاختلاف والتنازع إلى مرجع صحيح ثابت تؤخذ منه مناطات الأحكام والشريعة وأدلتها، ويكون فيها الحكم الفصل فيما اختلف الناس فيه، وهذا لا يكون إلا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما أخبر تعالى بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء:٥٩]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه**" وهو حديث صحيح ثابت.

وحقيقة رد المتنازع فيه إلى الله ورسوله إنما يكون ذلك لرفع محل الخلاف، لأن الاختلاف لا يكون في المسائل ذاتها، وإنما يأتي على العقول والأفهام، ورفع الخلاف فيها تبيين للصواب من الخطأ وللحق من الباطل في المسائل المختلف حولها.

وكم تنازع الصحابة في مسائل ثم تبين لهم وجه الحق فيها، مثال ذلك: ما كان من أصحاب رسول الله حينما تأمر عليهم بعض الصحابة رضي الله عنهم فأمرهم أميرهم أن يلقوا أنفسهم في نار أوقدها لهم من باب طاعة الأمير واجبة، فأبى الصحابة إلا أن يرجعوا إلى رسول الله فقال لهم: لو دخلوها ما خرجوا منها.

وطاعون عمواس بالشام واختلاف الصحابة فيه مثال كذلك حتى أتاهم الخبر بأنه إذا نزل الطاعون بأرض أنتم فيها فلا تخرجوا منها ، وإن نزل بأرض وأنتم خارجها فلا تدخلوا فيها، وترك الصحابة النزاع لما أتاهم النص الثابت من كلام رسول الله، وهذا من كمال إيمانهم وتحريهم أيضاً للدليل ورفع الخلاف، وكذلك القصة المشهورة قصة بني قريظة وصلاة العصر فيها ، واختلاف أفهام بعض الصحابة بين القول ومفهومه ومنطوقه، فمنهم من صلى في طريقه ومنهم من لم يصل، ولكنهم في نهاية أمرهم ردوا الأمر إلى رسول الله، فبين لهم صحة ما ذهبوا إليه وما اختلفوا

فيه بل وأقر كلا الفريقين في فهمه وتعامله مع النص النبوي: "**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**". وكذلك مسائل من الصيام والعبادات وغيرها كثيرة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد موته .

فالمقصود إذاً: أن تسليم الصحابة وردهم محل الخلاف والتنازع إلى الله ورسوله، وليس هذا فحسب بل وتسليمهم الكامل للأمر والحكم هو حقيقة تعظيم النصوص الشرعية وحقيقة الإيمان والتسليم بها.

أما الذين خالفوا طريق الصحابة رضي الله عنهم ومنهجهم في رد التنازع إلى الكتاب والسنة، فقد وقعوا في شراك الشيطان، وطرق أهل الأهواء والبدع، في تعاملهم مع المسائل والأحكام المختلف فيها، فلم يجعلوا كتاب الله وسنة رسوله هي الحكم عندهم، بل كان مرجعهم إلى ما لم يأذن به الله ورسوله، فوقعوا في التقليد والمتابعة للأقوال والأئمة والعلماء، دونما بصيرة أو هداية شرعية.

وذهبوا يأخذون أحكام الشريعة من المنامات والرؤى والأحلام، والكشف والإلهام، وتبعوا عقولهم وأهوائهم بل وصادموا بها أحكام الشريعة الثابتة كذلك تحت مسمى إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل على النقل.

وهذا خلل كبير في حقيقة الإيمان والتسليم لنصوص الشريعة الثابتة، وقصور عن فهم أصول وقواعد الفهم والاستنباط الصحيح للأدلة والأحكام، فضل هؤلاء وأضلوا، وصار لهم مناهج وتصورات وأفكار ومدارس لها أصحاب وأقلام.

ولا أدل على هذا الكلام من هذه المذاهب والفرق الثلاثة: الشيعة المبتدعة خاصة الاثني عشرية، والصوفية المبتدعة والملحدة، وأصحاب المدرسة العقلية المزعومة، وكيف أنهم جعلوا أحكام الشريعة ومسائلها مردها إلى غير كتاب وسنة، وهنا نقف سريعاً معها:

فالشيعة: صاروا لا يعتمدون على القرآن ولا على السنة ولا حتى على إجماع الأمة، وصاروا يعتقدون بجهل كبير، وسوء فهم موروث أن أئمتهم من المعصومين وهذا معروف ومقعد عند الشيعة الإمامية، ولا أدري كيف تجرأوا على قول ذلك؟

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فصاروا لذلك لا ينظرون في دليل ولا تعليل، بل خرجوا عن الفقه في الدين كخروج الشعرة من العجين".[(١)]

والصوفية: وقعت في تعظيم شيوخ طرقهم وأقطابهم، وقالوا هم الأولياء فحسب وهم الأقطاب والأبدال، حتى صرفوا لهم في قبورهم العبادات الشرعية التي لا تكون إلا لله تعالى وحده لا شريك له، وكذلك وصفهم بتدبير الكون مع الله تعالى، وتصريف أمور الخلق ونظرهم في المقادير. فيأخذون عن شيوخهم كل ما صدر عنهم حقاً كان أو باطلاً، ولا يردون ذلك إلى الشريعة والنصوص من الكتاب والسنة كما فعل الشيعة تماماً مع أئمتهم، بل ويأمر هؤلاء باتباع الطرق الصوفية والاقتداء بشيوخها وتقليدهم، فصاروا مقلدين لهم بلا هداية من الله ورسوله.

واعتمدوا كثيراً على ما سموه الكشف والإلهام من الرؤى والأحلام، وأن هذا الكشف مما اطلع عليه الأولياء بعلمهم للغيب وأنها حق كأنها رؤيا الأنبياء والرسل، وجعلوها مصادمة للقرآن والسنة، مضاهية لها كالحجة والبرهان.

ولا نريد بسط الكلام وإلا صار الكلام عليهم، وما أجل قول الشافعي رحمه الله تعالى: "كل شيء خالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط، ولا يقوم معه رأي ولا قياس، فإن الله قاطع العذر بقول رسول الله، فليس لأحد معه أمر ولا نهي غير ما أمر به ونهى عنه".[(٢)]

أما أصحاب المدرسة العقلية: فقد خالفوا كثيراً وعارضوا وجادلوا في نصوص الوحيين من الكتاب والسنة النبوية، وصيروا عقولهم حكماً وإماماً عليها، وجعلوا مرجع كل خلاف إليها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين أنه لا يقبل من أحد أن يعارض القرآن رأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده".[(٣)]

(١) منهاج السنة(ج٦/381).
(٢) الأم(١٩٣).
(٣) مجموع الفتاوى(ج١٣/٢٨).

فهذا حال الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما هؤلاء فلهم تأصيل فاسد بعقولهم، ولهم تقعيد باطل بأفهامهم القاصرة عن إدارك الحق وتصوره، لأنهم في كل جهودهم الطويلة يرمون إلى محاولة المواءمة والتوفيق بين النصوص الشرعية المحكمة وبين ما أسموه معطيات الحضارة الغربية.

ولست أدري هل نستمد شريعتنا وأصولنا من معطيات بشرية قاصرة، أم أنها قد نزلت في منهج رباني فطري من الله تعالى وحياً جلياً فيه الروح للأرواح والأبدان، وفيه سعادة للأفراد والجماعات والأمم، وفيه المنهاج الأقوم ، فما لهؤلاء يتخبطون بعقولهم عن إدارك الحق، والوقوف على أدلته الواضحة البينة لكل ذي علم وبصيرة.

لقد حاول هؤلاء التهوين من مكانة الإجماع وحجيته، وحالوا رفضه أو تأويله، وحالوا بتلاعبهم في نصوص الشريعة أن يلقوها في دائرة الفهم المقاصدي للإسلام دون الوقوف مع حقيقة النصوص وظاهرها، ونحن لا ننكر هذا ولا نقلل من شأنه، ولكنهم جعلوه عمدة منهجهم البحثي والعقلي ليبطلوا به أحكاماً شرعية ثابتة، كما سمعت أحدهم يقول بأن حد الردة ليس من الإسلام لأنه لا يدخل في مفهوم الفهم المقاصدي للإسلام وأنه دين الرحمة والعفو والتسامح، وتشريع حد الردة لا يتوافق مع أصل الرحمة في الإسلام ثم لا يتوافق مع حرية الاعتقاد التي كفلها دين الإسلام، وكلامه هذا فيه تلبيس وتدليس كثير، وخلل وقصور عن فهم حقيقة المفهوم المقاصدي للإسلام وتشريعه الأحكام لبناء مجتمع إسلامي نظيف.

وحاول هؤلاء كذلك تجميع الناس على أسس اجتماعية فحسب دونما أن يكون بينهم رابط من التقوى والإيمان، وإنما روابط الوطنية والقومية وما سموه بالإنسانية أحياناً، ووقفوا أمام الجزية في الإسلام وحكمها وحاولوا إبطالها، واختلاق أدلة مزعومة في ذلك وتأويلات عقلية منكوسة تضاد أحكام الإسلام وشريعته الغراء.

ومن ذلك أيضاً: الاعتماد الكبير على مبدأ التأويل للنصوص كما أولوا المهدي وأحاديثه الصحيحة الثابتة وأنه ما هو إلا كناية عن نشر الحق والعدل والسلام في الأرض، وأولوا المسيح الدجال بأنه الفتن والشر الذي يكثر في آخر الزمان، بل وأنكر أناس منهم الأصول الإسلامية العقيدية، فأنكروا عذاب القبر والنار والبعث يوم

الحساب، ومنهم من أنكر الجن ووجودهم ومنهم من تأول وجودهم بكلام لا يرقى إلى الحق والصواب، ومنهم من أنكر معجزات النبي صلى الله عليه وسلم الحسية وانشقاق القمر ونبع الماء.

ووقفوا مكابرين معاندين للأحاديث المتواترة الصحيحة الثابتة ولو كانت أحاديث آحاد ورفضوها وحكموا أهوائهم وعقولهم في كل ذلك.

وطعنوا في السنة ورواتها، من خيار الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، ومنهم من أنكر معراج النبي صلى الله عليه وسلم وحديث الذباب وشق الصدر وملك الموت مع موسى عليه السلام.

وخرج منهم المنادون بالتقارب بين الأمة الإسلامية وأصحاب الملل والنحل الباطلة من اليهود والنصارى والفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة، وغير ذلك من الطوام والبلايا، والافتراءات والتأويلات الباطلة والتحريفات الكاذبة.

فأين عقول هؤلاء التي حكموها؟ وأين مناهجهم التي وضعوها؟ مما كان عليه الكواكب النيرة، والأفئدة الطاهرة، والألسن الذاكرة، والقلوب الخالصة من خيار وأتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام، وأين ردهم ما اختلفوا فيه وفي فهمه وإدراكه من قوله تعالى: "**فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر..الآية**"، وقوله: "**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله...الآية**".

القاعدة الثالثة: الإيمان بالمتشابه والعمل بالمحكم:

ومن تعظيم النصوص الشرعية كذلك: الإيمان بالمتشابه والعمل بالمحكم، مما في كتاب الله تعالى ووحيه المنزل، كما قال تعالى عن حال أهل الإيمان: "**والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ...الآية**".

أما حال أهل الزيغ والضلال مما أسلفنا ذكرهم وقولهم، فهم على خلاف أهل الإيمان فحالهم كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ**

الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَـاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ...الآية﴾.

وجاء في الحـديث: "**إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**". وهـو حـديث عنـد الإمـام أحمـد وصححه العلامة أحمد شاكر. وقال الضحاك: نعمل بالمحكم ونؤمن بالمتشابه ولا نعمل به وكل من عند ربنا. وهذا ما كان عليه الصحابة ومن تـبعهم وأئمـة الهـدى الأربعـة وأئمة الحديث من أهل السنة جميعاً، وما خالف في ذلك أحـد إلا مـن شـذ مـن أهـل البدع والأهواء والزيـغ والضـلال، الـذين قـالوا بتعـارض الأدلـة في القـرآن والسـنة وتوهموا ذلك في نصوص كثيرة، ولـو ردوا المتشـابه منهـا إلى المحكـم لمـا صـار هنـاك تعارض ولا تأويل مخالف، لكنه اتباع الأهواء ومخالفة الطريق والهدى والسـنة، وهـذه طرق أهل البدع والضلال في كل زمان ومكان، وما كتاب شيخ الإسـلام في درء ورد ما زعموا من تعارض العقل مع النقـل، إلا فقـه بـين لحقيقـة هـذه الفـرق والمـذاهب وخطرها على عقيدة الإسلام وسائر شرائعه.

إن منهج الصحابة رضـي الله عـنهم والتـابعين قـام حقيقـة الأمـر علـى تعظـيم نصـوص الـوحيين القـرآن والسـنة، وكمـال التسـليم لهمـا، أمـا المخـالفون لـمنهجهم وطريقهم من أهل البدع والأهواء، فقـد زلـت أقـدامهم، وضـلت عقـولهم في ذلـك، فحرفوا، وغيروا، وبدلوا، وأولوا، ووقعوا في الفتنة والزيغ والضلال، فضلوا وأضـلوا عن سواء السبيل. وإن الحق والهدى والنجاة في متابعة مـا كـان عليـه أصـحاب الـنبي صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

* * *

ثالثاً: المنهج السلفي وطريق التمكين وموقف المخالفين:

طريق التمكين اليوم ، طريق جهد وشاق ، وقد أودع الله تعـالى في كتابـه وكونـه سنناً ربانية وجارية، لإقامة هذا الدين في الأرض وفي دنيا الناس، وفصل لنـا سـبحانه معالم التمكين لدينه وشريعته، ودل عليها وأمر بها: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّـذِي**

ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

ولا ريب أن الأمة الإسلامية اليوم في حاجة ماسة وملحة إليها، لما حل بالعالم كله من البلايا والرزايا والعقوبات الربانية، في شتى جوانب الحياة البشرية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، التي تجري في الكون وفق السنن الربانية التي أرادها الله تعالى، فمن وفق إليها وفق لطريق النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، ومن خذل عنها فهول المخذول .

ولعلنا وقفنا فيما أشرنا إليه من قبل، أن طوق النجاة، وطريق التمكين لهذا الدين إنما منطلقه الأول والرئيس، في العودة الجادة الصادقة لهذا الدين، وشريعته المنزلة المتمثلة في هدي الكتاب والسنة والاعتصام بمنهج وفهم الصدر الأول من سلف الأمة ابتداءً من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم جميعاً، والذي يتمثل فيما يسمى اليوم "**بالسلفية**" أو "**الفرقة الناجية**" أو "**الطائفة المنصورة**" أو "**أهل الحديث والأثر**" أو المصطلح العام الجليل "**أهل السنة والجماعة**"، وكما جاء في الحديث: "**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**" حديث حسن .

ولهذا جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم الميزان الحق حين وقوع الفتن والافتراق في أمته كما جاء في الحديث المحفوظ المشهور حديث الافتراق الذي وقعت فيه الأمم، والذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**".

وفي بعض الروايات: "**هي الجماعة**". رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

والسلفية تعني: في إجمال سريع الاتجاه المقدم للنصوص الشرعية على البدائل الأخرى منهجاً وموضوعاً الملتزم بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم، وهدي

أصحابه علماً وعملاً، المطرح للمناهج المخالفة لهذا الهدي في العقيدة والعبادة والتشريع.[١]

أو هي: اصطلاح جامع يُطلق للدلالة على منهج السلف الصالح في تلقي الإسلام وفهمه والعمل به، وللدلالة على التمسك بهذا المنهج والعض عليه بالنواجذ إيماناً وتصديقاً واتباعاً.

ويقوم هذا المنهج على ثلاثة قواعد هامة وأصيلة: صحة المعتقد، وصحة المنهج، وصحة السلوك. وكما ذكرنا فإننا نؤكد على وجوب سلوك هذا المنهج الرشيد في دعوة الناس إلى الإسلام من جديد، لأنه المنهج الوحيد الكفيل بالتمكين لهذه الأمة الإسلامية وعودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة الأول، وهو المنهج الكفيل ببناء حضارة إسلامية مثالية، كما تمثلت كذلك طيلة القرون الماضية، وذلك لما يحمله من نظم في العقيدة والعبادة والتشريع الوسطي الشامل.

ولقد مكن الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم في الغربة الأولى للإسلام في زمان النبوة، باقتفائهم هذا الطريق وهذا المسلك للكتاب والسنة. وكم رأينا من عوامل الثبات والتمكين لهم، التي جعلت منهم السادة والقادة والفاتحين، من أمثال أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وسيف الله المسلول خالد بن الوليد، وجعلت منهم الأمراء والخلفاء الراشدين، من أمثال الخليفة أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم أجمعين، وجعلت منهم الدعاة والعلماء والقراء والمفسرين، من أمثال مصعب بن عمير وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، وحملة مشاعل العلم والدعوة في جل ربوع العالم من حولهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً رضي الله عنهم جميعاً.

والتاريخ الإسلامي والفتوحات الإسلامية التي خاضها المسلمون الأوائل فيها دلالة واضحة على عظمة وجلال هذا المنهج الإسلامي الرشيد، الذي حملوه شريعة ومنهاجاً، سيفاً ومصحفاً، حتى دانت لهم الفرس والروم، والعرب والعجم.

---

(١) انظر السلفية وقضايا العصر للزنيدي(٤٩).

وإن كل محاولة للتمكين بعدهم في ظل الواقع المعاصر اليوم وما يحمله من عداء ومكائد وتفرق، لن تصل إلى كمال مرادها، وقوة تمكينها لهذا الدين، إلا إن سارت خلف هذا الركب الإيماني الرباني، وتلمست آثارهم، وحثت الخطى خلفهم.

ولا يعني هذا مجرد التقليد الأعمى الذي لا يجاري التوازن بين ثوابت الشريعة وبين متطلبات الواقع المعاصر وما استحدث فيه، كما تقول المدارس التغريبية والمدرسة العقلانية .

لقد رأينا اليوم بعد معرفتنا لواقعنا المعاصر الأليم، أن كثيراً هم من يقولون ويبرهنون لنا أنهم سائرون خلف طريق السلف والصحابة والتابعين، ولكنهم حقيقة الأمر خالفوا طريقهم، وسلكوا مسالك للدعوة والتمكين لا تمكنهم من إثبات هذه الأقوال والدعاوى، فوقعوا في مسالك متناقضة من الجمع غير المتوافق بين مذهب السلف والخلف، وبين الصوفية المبتدعة والملحدة والسلفية وربما العلمانية من باب حرية العقيدة، والوطن يسع الجميع والكل، وخلطوا كثيراً بين السنن والبدع التي إن تجمعت أخرجت أصلاً كلياً كبيراً، يُدخل هذا المسلك الدعوي في مزالق الانحراف البعيد عن منهج أهل السنة والجماعة.

لقد وقف المنهج السلفي على طول التاريخ الإسلامي كله أمام كل الفرق والمذاهب التي فارقت وخالفت الكتاب والسنة وما أجمع عليه الصحابة والتابعون، ابتداءً من الخوارج والقدرية والشيعة والمرجئة ومن سار على منوالهم، وقارع بعض الصحابة هؤلاء، من أمثال عبد الله بن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم جميعاً. كما تصدى جاهداً أمام العقل المعتزلي والفلسفي وأصحاب التأويل والتعطيل، وبين فساد ما ذهبوا إليه وخالفوا فيه من الحق والسنن.

وفي العصر الحديث اليوم وقف المنهج أيضاً بقوة وثقة ثابتة أمام التيارات والأفكار والمذاهب المحاربة للإسلام، من الشيوعية الماركسية والعلمانية والاشتراكية وغيرها وما تولد منها. وقف ليبين للناس معالم الطريق والتمكين، ومعالم الشريعة والدين، ومعالم الحضارة الإسلامية المثالية الأرقى. ولهذا لم يتوقف هؤلاء عن معاداته

والتشهير به، والنيل منه، والكيد له ولأتباعه، ورميهم بـالتخلف والجمـود والرجعيـة والأصولية، إلى غير ذلك.

وعلى ضوء ما تقدم نقف هنا عدة وقفات مهمة:

[١] المنهج السلفي تجديدي لا تقليدي:

المتأمل في طبيعة هذا المنهج يراه على خلاف ما يرميه به أعداءه وخصومه، بأنه مـنهج تقليدي ليس فيه تجديد وإنما هو دعوة للعودة للقديم والتقليـد لهـم في شـتى مجـالات الحياة، ولا ريب أن هذا وهم حقيقي، وادعاء باطـل، لـيس لـه في حقيقـة الأمـر مـن نصيب.

لأنه مبني على مغالطات بعيدة كل البعد عن القراءة التاريخية لمنهج السلف، كمـا أنـه بعيد أيضاً عن طبيعة ومقومات المنهج، كما أنه مخالف لواقع المنهج نفسه، لأن مدرسة السلف كلها مدرسة تجديدية بطبيعتها، تأنف التقليد الأعمى، وترد القول الخطأ علـى قائله، بل وتعمد إلى فتح باب الاجتهاد بضوابطه الشرعية الصحيحة، بخلاف القـائلين بإغلاقه، أو المتفلتين من ضوابطه، إلى جانب أنها عُمّرت كـثيراً بالمجـددين علـى طـول التاريخ من أمثال الخليفة عمـر بـن عبـد العزيـز، والإمـام الشـافعي، والإمـام أحمـد، والإمام خاتمة الحفاظ وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني رحمهم الله جميعاً.

كما أننا نتنبه إلى أمر خطير وهو الفارق بين التجديد الشـرعي الـوارد في حـديث النبي صلى الله عليه على رأس المائة عام، وبين التجديد الذي يـدعوا لـه اليـوم دعـاة الباطل، والذي في مجمله يعني التخلي الصريح عن مباديء الإسلام وتشـريعاته لأنهـا في نظرهم انتهت صلاحيتها منذ القرون الأولى السالفة، فالتجديد عنـدهم، أن نختلـق تشريعات بشرية قاصـرة مـن جديـد، بعيـداً عـن نـور السـماء ووحـي الله المعصـوم لتتناسب في زعمهم مع العصر الحديث.

وقد بدا لنا من خلال تطورات الأحداث في الحقبة الأخيرة، كم عمل حملة المنهج على تصفيته وتجديده من كل ما علـق بـه علـى طـول التـاريخ مـن الأهـواء والبـدع

والمخالف، التي غيرت كثيراً في ملامح المنهج الإسلامي الصافي، سواء من أهله وأتباعه، أو من مخالفيه وأعداءه.

وهذا ما نحاول إبرازه والوقوف عليه من خلال حديثنا عن هذا المنهج السلفي والحاجة إليه، وأنه منهج يحمل كل مقومات التمكين العقيدية، والتعبدية، والأخلاقية، والتشريعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها من المقومات اللازمة لبناء أي حضارة وتقدم، وبيان موقف المخالفين لهذا المنهج الرباني. وحقيقة الأمر أنني هنا أحاول الوقوف على أهمية منهج السلف ومتابعته، وكونه طريق متعين للتمكين للأمة، وبيان موقف من خالفه، ولست أُعنى هنا بموضوع التجديد نفسه فإن له مجالاً آخر في غير هذا الكتاب.

[٢] المعادون للمنهج السلفي:

لقد وقف أمام المنهج السلفي ودعوته الصافية، التي تمثل منظومة شاملة كاملة في جميع الحياة البشرية عقيدة، وعبادة، وأخلاقاً، ونظماً، اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية، لأنه من عند الله وحده: **"ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً"** فريقان معاصران:

الأول: المدرسة العقلانية: التي تنوعت فيها آرائهم ومذاهبهم حتى وصلت بسبب اعتمادهم على عقولهم دون الوحي المعصوم أو بالتأويل المخالف إلى حد كبير أحياناً من التناقض والاختلاف.

وزعموا أن المنهج السلفي ما هو: إلا مذهب جديد مبتدع في الدين، والتمذهب به بدعة، فهو لا يعني إلا مرحلة زمنية وصفها الرسول ؟ بالخيرية، وأنه ليس في الإسلام طائفة متميزة تُسمى بالسلفية.

وقالوا كذلك: بأن الالتزام في العصر الحاضر بالمنهج السلفي الذي سار عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين أمرٌ لا موجب له، لأن هذا المنهج إنما هو موقف اجتهادي منهم ولا يلزم غيرهم الأخذ به، وأن السلف أهل السنة والجماعة يتنكرون للعقل ويغضون من شأنه وينحون به جانباً، ويُنكرون استخدام القياس،

ويحكمون بالضعف أو الوضع على كل ما ورد في فضل العقل من أحاديث، والقائلون بهذا يعتمدون على الجمع التراثي من المذاهب والفرق جميعاً.

أما الذين اتخذوا موقف التحديث في الفكر الإسلامي المعاصر من هذه المدرسة العقلانية ، فقالوا: بأن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى سنة تشريعية يلزم العمل بها، وسنة غير تشريعية لا يلزم العمل بها، وأنه يدخل في القسم الثاني مسائل باب (المعاملات) في الفقه الإسلامي، لأنه من أمور دنيانا التي نحن أعلم بها، كما يدخل فيه تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم في القضاء والإمامة.

وقالوا أيضاً: أن قضايا الاعتقاد مسائل فكرية، وأن الفكر يتغير بتغير الزمان والمكان، فالعقيدة إذن متجددة متغيرة وعلى المسلمين أن يختاروا ما يناسبهم من المناهج بحسب الظروف والملابسات التي يعيشونها. وقالوا أيضاً: أن أصول الفقه علم مطبوع بأثر الظروف التاريخية التي نشأ فيها، وأنه نظرٌ مجرد، كله مبالغة في التشعيب والتعقيد بغير طائل، ومقولات نظرية عقيمة لا تلد فقهاً البتة، بل تُولِّد جدلاً لا يتناهى.

وقالوا أيضاً: أن الأحكام تتغير بتغير الزمان، وأنه لا يمكن تطبيق الشريعة على المستجدات والظروف والأحوال المختلفة المتباينة إلا بتأسيس معقولية الأحكام الشرعية، وذلك: باتخاذ تحقيق المصالح أساساً للتشريع، وبجعل دوران الحكم الشرعي مع الحكمة والمصلحة لا مع العلة، وبربط الأحكام الشرعية بأسباب نزولها[(١)].

والمتأمل لهذه الأقاويل والنزعات العقلية، يتبين له أن العقل البشري عقل قاصر عن إيجاد حلول ثابتة وصالحة لكل الأزمان والأجيال والأعصار.

والأخطر من ذلك في مسلكهم هذا ذوبان الشريعة الإسلامية وأحكامها على مر العصور، حيث أننا لو تعاملنا مع نصوص الكتاب والسنة كما تقدم آنفاً بهذا المنطلق المنعزل عن فهم الوحي وفق المراد الرباني والنبوي الصحيح، لأدى ذلك إلى نقصان الأحكام الشرعية في شتى مجالات الحياة سياسية كانت أو اقتصادية أو أخلاقية أو

---

(١)انظر مقال لأحد الكتاب بموقع إسلام أون لاين.

تعبدية أو عقدية أيضاً، ولأدى إلى ذوبانها على مر العصور والأزمان فرأينا شريعة وأحكاماً متناقضة تماماً مع الوحي المعصوم من الكتاب والسنة، **لماذا؟**

أولاً: لأن هذه المدرسة وقفت من نصوص الوحيين المعصومين موقفاً متناقضاً، حيث يقولون إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل على النقل، ولا ريب أن هذا سخف من القول وضلال، إذ إن موجب العقل يقتضي خلاف ما ذهبوا إليه، لأن الله تعالى ما أوجد العقل ليتناقض مع وحيه المنزل، هذا من وجه.

أما الوجه الآخر: أن نصوص الكتاب والسنة لا يكون فيها اختلاف ولا تعارض في الأصل، لأن الله تعالى لا يجمع في شريعته ودينه ما يخالف بعضه بعضاً وينقض بعضه بعضاً، إنما التعارض في قصور الفهم الصحيح لمراد الله تعالى ومراد رسوله، وقد تكلم الفقهاء والأصوليون في هذه المسائل وبينوا طرقاً كثيرة في رفع توهم التعارض بين النصوص الشرعية .

وأما الوجه الثالث: أنهم ما حققوا الإيمان والتسليم لمراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ إن العقل يقتضي أن التسليم والإذعان من كمال الإيمان بالوحيين الصافيين القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً**﴾، وكلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن الدين لو كان بالعقل لكان المسح على الخفين من أسفل. فهذه المدرسة العقلية لا تحمل منهجاً عقدياً صحيحاً واضحاً تقدمه لأتباعها والمخدوعين بها، ولا تحسن إلى اليوم إلا ضرباً من علوم المناطقة والفلاسفة، الذين عارضوا الشرائع بالآراء والفلسفات الكلامية، وهم يظنون أنهم على باب من العلم لا يحسنه غيرهم.

فأنكروا الغيبيات كالملائكة وعذاب القبر ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم الحسية، ومنهم من وقع في التأويل الباطل الذي ليس له من الشرع دليل ولا برهان، وخالفوا فيه أهل الإيمان والاتباع.

الثاني: المدرسة التغريبية: التي تفرعت هي الأخرى ما بين اتجاهات علمانية وليبرالية وماركسية شيوعية، وهؤلاء خلطوا كثيراً وتخبطوا كمن سبقوا في فهمهم لحقيقة السلفية ومذهب السلف. فقد أدخلوا كل منتمٍ للإسلام تحت أي مسمىً في مفهوم السلف والسلفية دون تمييز منهم بين المناهج والمعتقدات، وهذا مسلك خطير حيث يبن عورهم العلمي، وجهلهم التاريخي سواء للسلفية أو سائر الفرق المنسوبة للإسلام. لقد بنوا طريقة تعاملهم مع السلفية على ما نشأ عندهم في القرون الوسطى المظلمة، حيث رجال الكنيسة والمعبد، الذي لا يحسنون قيادة الحياة ومواكبة الركب الحضاري، لأنهم كانوا منشغلين بكنائسهم ومعابدهم وطقوسهم.

ومن هنا نشأت دائرة الانفصام بين الدين والدنيا عندهم، واعتقدوا بذلك أن سبب كل تخلف عن ركب المدنية والحضارة، إنما منشأه من التدين والدين. فصارت العلمانية والتمرد على القيم والانفتاح المنفلت هي شعارات التقدم والرقي للمدنية المزعومة، ومن ثم تعامل هؤلاء مع المنهج السلفي الإسلامي بنفس المعطيات والآفات، فحكموا عليها وعلى أتباعها وأنصارها ، والداعين إليها بأنهم من الذين يريدون عودة العالم من جديد إلى عصور الظلام والجهل والتخلف، فوسموها بالتخلف والرجعية والتأخر عن مواكبة مستجدات الواقع المعاصر، مع أن السلفية الإسلامية هي عدو للتخلف والتأخر والرجعية، كما أنها أساس وعماد للحضارة الإسلامية طيلة عشرة قرون متتالية، وستظل هكذا بأمر الله وحده.

ولم يقفوا عند هذا التغريب بل تعدى ذلك إلى إيجاد مدرسة أخرى من بين هؤلاء المسلمين، تحمل سمومهم وأفكارهم وحقدهم على هذا الدين، وأضفوا عليهم ألقاباً زائفة ليوهموا السائرين في ركابهم أنهم "المثقفون، والمتقدمون، والتنويريون، والتطويريون، والنخبة"، إلى غير ذلك من أنواع النفخ والتكبير الذي لا يعدوا نفح الكرة بشئ من الهواء المعبأ، فرجعوا إلى بلدانهم حاملين لكل تغريب وغريب، ووقفوا أما دعوة الإسلام تأويلاً وتعطيلاً وتجهيلاً. فخرج منهم الكتاب والأدباء والمثقفون، الذين حملوا على الشريعة الإسلامية بالهدم للثوابت والأصول، والاتهمام بأنها قاصرة عن مواكبة مسيرة الحضارة العالمية المسرعة في التقدم والمدنية.

بل وعملوا على إحياء وتمجيد كل خبيث وماضٍ من التراث الفرعوني والإغريقي والروماني والوثني، وإحياء النعرات القومية والوطنية والحزبية، التي لا تزيد في أمة الإسلام إلا تفرقاً وشتاتاً، واحتراقاً من لفح الجاهلية الغربية المعاصرة منها والبائدة على طول التاريخ.

ومن هنا وقفت المدرستان العقلية والتغريبية موقف العداء الصارخ لدعوة الإسلام عموماً، المتمثلة في السلفية خصوصاً دون غيرها من سائر الدعوات والحركات الدعوية المعاصرة إلا ما ظهر منها، وتولد من كل هذا أجيال وأجيال، أصابها الخور والوهن وحب التقليد الأعمى لكل دخيل ومستغرب، ولو كان يتنافي بوضوح ودلائل وبراهين مع مسلمات وأصول الشريعة الإسلامية ، هذا من حيث العداء للمنهج والإسلام.

[٣] المخالفون للمنهج السلفي:

أما من حيث المخالفة للمنهج السلفي في طرائق العمل الدعوي ووسائله وطبيعته ومنهجه، فيدخل في ذلك الجماعات الدعوية المعاصرة، والتي تحتسب غالباً في الصف الإسلامي بجميع مناهجها وتصوراتها، واتفاقها جملة على نصرة الإسلام، والسعي الحثيث لإقامة خلافته الراشدة من جديد، والمعادون للإسلام ودعوته يقفون منها كلها موقف العداء الصراح والخوف من توجهاتها وأهدافها. وهم لا يفرقون حقيقة الأمر بين الموافق منها للمنهج الإسلامي والمخالف في كثير أو قليل، فهي عندهم تمثل المشروع الإسلامي برمته.

والمتأمل لواقع هذه الاتجاهات الدعوية والتجمعات يظهر له وجوه كثيرة مختلفة في طبيعة العمل والدعوة للإسلام حيث وجود الاختلافات السائغة وغير السائغة، والبدع والخلط بين الحق والباطل، والتي رجعت على جهود كثيرة من العاملين للإسلام بنوع من التردي أحياناً، والتناحر والتشاحن أحياناً أخرى، وأيضاً التفسيق والتبديع والتكفير مرات ومرات، لماذا ؟ **لأن جل هذه الدعوات والحركات لم تتخذ من المسلّمة الشرعية ألا وهي: اتباع منهج الصحابة والسلف وتعاملهم مع نصوص الشرع من**

الكتاب والسنة، لم تتخذها طريقاً لبناء عمل دعوي صحيح، فوقفوا عند حبهم للصحابة والسلف رضي الله عنهم.

واكتفى هؤلاء بالثناء والترضي عليهم، ولا بأس بالاستدلال ببعض فتاويهم ومواقفهم التي توافق ولا ريب كثيراً مما ذهبوا إليه، وربما عابوا كثيراً على إخوانهم المخالفين لهم المتبعين لمنهج السلف قولاً وعملاً واعتقاداً، وقالوا بقصور نظرهم وضيق أفقهم، عن إدراك الشمولية والوسطية لحقائق هذا الدين الكبير، ولبعدهم أيضاً عن معترك الفكر والسياسة الواقعية، ولأنهم يفهمون السلفية على أنها ثوب قصير، ولحية كثة، وسواك للفم، ومواعظ وفقهيات لدخول الحمامات والوضوء وبعض فقهيات الصلاة والصيام، وانتهى الإسلام عند هذا الحد، ومن هنا فلديهم قصور في النظر، وضحالة في الفهم، وضيق في الأفق.

وحقيقة الأمر أنهم أخطأوا الطريق إلى الحق بهذا القول والتصور الذي خالط عقولهم ومنهجهم، لأن الخلط بين المنهج شيء، وبين تطبيق المنهج من حملته شيء آخر، نعم قد يقع الخطأ وتزل القدم ، من بعض أناس يحسبون على الدعوة وهم في الحقيقة ثقل عليها، وهذا واقع عندهم وعند غيرهم.

ثانياً: أن الاعتبار الذي ينبني عليه المنهج والعمل إنما يكون بصحة المنهج وسلامته اعتقاداً وتصوراً وسلوكاً، فلا اعتبار في الشرع للأفراد بدون ما يحملونه من مناهج ومعتقدات تحملهم على الحركة والبذل والدعوة والعمل، فإذا صح المنهج وسلم المعتقد، ننظر إلى سلوك العاملين ومدى توافقه مع ما يحملون من مناهج ومعتقدات وتصورات عن طبيعة العمل الدعوي أو غيره.

ثم أمر ثالث أكدنا عليه بأدلته الواضحة البينة لكل أحد بما سبق: أن حب الصحابة والتابعين رضي الله عنهم يقتضي ذلك متابعتهم والسير على طريقتهم ومنهجهم في التلقي الفريد، والتعامل الصحيح مع هذا الدين وعقيدته وشريعته، هذا بمقتضى الحب والموالاة لهم. أما بمقتضى الشرع فقد أوجب الله ورسوله ذلك إيجاباً بالأمر البين في كتابه وسنة رسوله، بوجوب اتباعهم والأخذ عنهم، وعدم المخالفة لهم في

شيء مما شرع الله تعالى ورسوله، إلا ما كان من قبيل ما يجد من أحكام ومعاملات تتنزل عليها الأحكام الشرعية وفق منهجهم ومذهبهم.

لأن الشرع لا يتعارض مع ما يجد من وسائل ومستحدثات في أمور الحياة البشرية كما توهم ما لا بصيرة عنده بالشريعة وأصولها، ولا يقف منها موقف المعارضة والمباينة إلا إن تحقق بها إفساد وإخلال يرجع على مسائل الشريعة وأعراف وأخلاق الأمة ومعتقدها ودينها، ولا حاجة لي هنا أن أعيد ذكر الأدلة في ذلك لأنها أشهر من أن تذكر، إنما الإشكال، في حقيقة الاستجابة لله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم ومتابعته وأصحابه فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

لأن المسلم المتبع حقاً ، المتسنن باتباع الهدي والسنة، لا يخالف في ذلك، بل يسلم ويذعن، ويرضى ويؤمن كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً**﴾، فدلت الآية على وجوب متابعة سبيل المؤمنين والحذر من الوقوع في الوعيد لمخالفة هذا السبيل الذي سلكوه.

وكما ذكرت كتب اللغة والتفسير أن السبيل هو الطريق، وأن أول المؤمنين الذين سلكوا طريق الإيمان والمتابعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم هم الصحابة رضي الله عنهم، فهم أول من عرف الإيمان والتسليم وكذلك السمع والطاعة وكذلك أيضاً الاتباع للأثر.

ولهذا جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم الميزان الحق حين وقوع الفتن والافتراق في أمته كما جاء في الحديث المحفوظ المشهور حديث الافتراق الذي وقعت فيه الأمم، والذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي"** وفي بعض الروايات: "**هي الجماعة**" رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً**﴾.

فالمقصود إذاً: أن المعادين والمخالفين لمنهج ومذهب السلف، وقعوا في كثير من المخالفات الشرعية الخطيرة والكبيرة مع تفاضل بينهم فيما وقعوا فيه، وكل بحسبه إلا أصحاب المناهج المستغربة والعلمانية والشيوعية الملحدة، فهؤلاء ولا ريب ليسوا على شيء، والمتأمل في واقعنا المعاصر اليوم يعلم يقيناً أن جل هذه المناهج أو كلها لن تنصر ديناً، ولن تعيد مجداً مسلوباً، ولا حقاً مغصوباً، ولن تفلح أن تقيم للإسلام دولة على كتاب وسنة بينين واضحين، يهتدي بهما الناس، ويعيشوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأقواتهم، ولن تفلح كذلك أن تحارب عدواً يأخذ خيرات أمتنا، وينهب ما تملكه من مقدرات وثروات وكنوز، أو يحتل أرضاً، ويهتك شرفاً، ويذل عزيزاً من المسلمين.

كما أنها وفي أفضل أحوالها سيسمح لها بإقامة بعض الشعائر والعبادات، والمشاركة هنا وهنالك، في بعض المشاريع السياسية والاقتصادية دون أن تكون هي مالكة زمام الأمر، أو صاحبة القرار المتفرد بالمرجعية التي تريد وتنتمي.

وهذا إن وقع فلا ريب أن حل ذلك أمر ميسور لديها بقرار حكومي أو دستوري كما يقولوا هؤلاء، وهذا رأيناه في بلاد الجزائر وتركيا، وكما يحدث بالتزوير في مصر وبعض البلاد الإسلامية الأخرى، وما مشروع حركة حماس في أرض القدس وفلسطين المباركة منا ببعيد، حيث العداء له، والتصدي لسياسته ومرجعيته.

فكيف إذا ساد الأمر كل البلاد وفق الشريعة الإسلامية الصحيحة المتابعة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفق منهج وفهم السلف الصالح من صدر هذه الأمة المباركة.

إن الواجب الملزم يفرض على كل الدعاة إلى الله تعالى وإلى شريعة الإسلام، أن يلزموا ما كان عليه السابقون الأولون من الصحابة والتابعين من مسائل الاعتقاد والمنهج والعبادة والسلوك في شتى شؤون الحياة الإسلامية كلها، لأن اتباعهم فيه السعادة والهدى، وفيه العز والسيادة والتمكين، فهم مكنوا في الأرض بهذا المنهج، وحكموا العالم وفتحوا البلاد، ودونوا الدواوين، واستخدموا العمال، وبنوا الحضارة في كل ميادين الحياة والعلوم، في حين أن أوروبا وغيرها كانت تعج في ظلمات الكفر

والشرك من جانب، وظلمات التخلف المدني والإنساني من جانب آخر، فمن الظلم إذاً أن يوصم أصحاب هذا المنهج بأنهم لا يحسنون قيادة العالم ولا فقه الواقع، ولا يفقهون من شؤون الحياة والاقتصاد إلا ما يفقه العوام.

إن المنهج السلفي طريق للتمكين الإسلامي، لأنه قائم على منهج رباني فريد، من الكتاب والسنة، ومنظومة شاملة كاملة في جميع الحياة البشرية عقيدة ، وعبادة، وأخلاقاً، ونظماً: اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية. إنه منهج شامل لأنه من عند الله وحده :"**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**". نعم، قد يقع الخطأ والخلل في حملته لأنهم بشر، لكنه يظل المنهج الرباني المعصوم، الذي يجمع بين الأصالة والثوابت، وبين المتغيرات والمستحدثات وفق منهج الله وشريعته.[(١)]

ولقد أراد الله تعالى في واقعنا أن نرى أثراً حقيقياً للتمكين ولو الجزئي في الأمة، في دعوة الشيخ المجاهد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، تلك الدعوة الإصلاحية التجديدية في العصر الحديث وفق منهج السلف، وذلك بقيام دولة المملكة السعودية على الشريعة الإسلامية، بينما نجد كثيراً من الدعوات الإصلاحية في ذات الوقت في بلاد أخرى لم يكتب لها التوفيق والقيادة.

أولاً: لأن هذه توفيق من الله وحده.

ثانياً: لإخلاص الشيخ في دعوته.

ثالثاً: لقيام دعوته على الكتاب والسنة وفق منهج السلف، مما جعل لها في القلوب طريقاً وموطناً.

رابعاً: لوجود العامل السياسي من الحاكم في العودة للكتاب والسنة وأخذ الناس على ذلك. أما خلاف ذلك فلم يكن له ذلك، إلا على قدر جهده وإخلاصه وصحة منهجه ودعوته.

---

(١) انظر كتاب السلفية للزنيدي.

[٤] شبهات حول السلف والسلفية[١]:

وهذا المنهج السلفي يثار الغبار عليه بين الحين والحين من ناحية خصومه ومخالفيه، ولعلنا وقفنا على بعض منها في كلامنا آنفاً، وما ذلك منهم إلا أنه تنفير للناس من متابعته، وإلا جهل بحقيقته ومنهجه، وإلا حب للمخالفة التي تشبه التميز عما سواه، وإلا متابعة للأهواء والنفوس فيما تميل إليه عن متابعة الحق مع وضوحه وكماله، وإلا حبائل الشيطان من التفرق والتحزب المقيت الذي يجعل صاحبه على شفا جرف هار، مما يأتي عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة**".

وحقيقة الأمر أن الذين ناصبوا العداء لمنهج السلف ومتابعته، أقاموا شبهاتهم حوله من مبادئ غير صحيحة ولا حتى مستقيمة، فضلاً عن أن تكون مبادئ علمية موثقة، حيث أنهم في كل موطن يعرضون به أحياناً همزاً وغمزاً ولمزاً، ويصرحون به أحياناً أخرى كثيرة ومتفاوته.

ومن أمثلة ذلك إيرادهم لعدد من الشبهات الواهية حول تصور المنهج السلفي وطبيعته، وهل يصلح أن يكون منهجاً للتمكين أم لا؟ ويمكن الإشارة السريعة إلى بعضها أو أهمها فيما يلي:

الشبهة الأولى: قولهم: أن السلفية ومنهجها ليست منهج حياة ملزم للأمة اليوم بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، وأنها ما كانت إلا حقبة تاريخية مباركة بزعمهم وعفى عليها الزمان، ولا ريب أن هذا نوع من العبث اللغوي والشرعي أيضاً، لأن هذا التعريف للسلفية تعريف يحتويه نوع من العور والتخبط.

حيث أن قواعد اللغة وإن كانت معلومة في هذا، إلا أنها تقضي أن كل متابعة لمن سلف في أي وقت أو أي زمان، سواء كان المتابع على حق أم على باطل، تقضي تسمية ذلك سلفاً من باب قول الله تعالى عن الكافرين: "**فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين**"، وسلف الرجل سابقته على الطريق، أما من حيث المتابعة الشرعية للسلفية،

(١) للشيخ محمد المقدم سلسلة شرائط السلفية شبهات وردود وهي جامعة نافعة أفدت منها.

فهي لم تكن كمصطلح بهذا الاسم موجودة في بداية أمر الإسلام، لأنه لم تكن هناك في الأصل حاجة إليه تماماً كمصطلح أهل السنة والجماعة.

لأن الأمة كانت مجتمعة على الحق، ومتابعة للكتاب والسنة، فلا فرق ولا جماعات ولا أحزاب ولا تجمعات، أما من حيث مضمونها الشرعي فهي موجودة منذ أول صفحة في تاريخ الإسلام المشرق.

ولكن مع خروج عدد من الفرق والمذاهب المخالفة لمنهج وفهم الصحابة للكتاب والسنة، وخروج فرق كالخواج والشيعة والقدرية والمعتزلة والمرجئة والصوفية وغيرها، استلزم هذا وجود تسمية مميزة لأهل الحق المتابعين لمنهج الصحابة وفهمهم، تمييزاً لهم دون من سواهم من أهل الباطل والبدع والأهواء، فسموا بأهل السنة والجماعة، وسموا بأهل الحديث والأثر، وسموا بالفرقة الناجية، والطائفة المنصورة. ثم ما كان من غلبة التفرق والجماعات اليوم، فسموا بالسلف أو السلفية لكونهم على طريق منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم إن تعريف كل مصطلح لا يعرف حقيقة الأمر إلا من جهة أهله، فهم من وضعوه، وصاغوا له تعريفاً وتصوراً يبينه، فلا عبرة إذاً بتعريفات غير أهله الذين لا حظ لهم إلا السماع عنه، والدوران حوله، وأهل مكة أدرى بشعابها.

فالسلفية عند أهلها تعني كما ذكرنا: "الاتجاه المقدم للنصوص الشرعية على البدائل الأخرى منهجاً وموضوعاً الملتزم بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم، وهدي أصحابه علماً وعملاً، المطرح للمناهج المخالفة لهذا الهدي في العقيدة والعبادة والتشريع".[١]

ولقد تابعت كثيراً ممن كتبوا عن السلفية والمنهج السلفي، فوجدتهم حقيقة من المتخبطين في فهم ماهية السلف والسلفية، حتى جعلوها سلفيات كثيرة ومناهج متعددة حتى الفرق النارية تدخل عندهم تحت هذا المصطلح التعريفي عندهم، حتى

(١) السلفية وقضايا العصر للزنيدي(٤٩).

ألف الدكتور محمد عمارة كتابه السلفية في مثل ذلك، وليت شعري لو وقفوا على أهله لأراحوهم من وهم التعريفات والمصطلحات، التي بدا لنا مع تباعد الأيام عوارها وتخبطها ونقصها. وحقيقة مذهب هؤلاء أنهم متحكمون في نصوص الوحيين، لا متحاكمون إليهما، ولو تحاكموا إليها تجرداً منهم للحق، لعلموا طريق الحق والمتابعة.

الشبهة الثانية: قولهم: أن السلفيين يشتغلون بقضايا فكرية ونظرية في مجال العقيدة والإيمان والدعوة، وهذه القضايا عندهم قضايا هامشية لا تحتاج إلى كثير علم أو انشغال بها إلى هذا الحد..

وهذا الكلام على حقيقته كلام خطير وكبير، لماذا .؟

لأن اعتبار قضايا العقيدة والإيمان قضايا ثانوية ونظرية لا فائدة تعود على الأمة من الناحية العلمية والدعوية، أمر يورد صاحبه المهالك إن اعتقد بهذا، لأن تسمية الإيمان قضايا نظرية، لا يترتب عليها عمل مخالف لمنهج أهل السنة وما كان عليه سلف الأمة من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا هذا. لأن الإيمان ومسائله هي أصول الإسلام الكبرى وليست الهامشية، وهي الفارق بين أهل السنة والجماعة وبين المخالفين لهم من أهل البدع والأهواء.

فالإيمان هو روح الإسلام ولبه، بل هو أساس قبول الأعمال عند الله تعالى كما أخبر سبحانه: "**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم...الآية**"، فجعل تحقيق الإيمان هو الأساس في العمل الذي هو تحكيم النبي صلى الله عليه وسلم. والمستقرئ لكتاب الله تعالى يجد تقسيمات أهل العلم لمواضيع القرآن يرجع ثلثها إلى التوحيد وما يتعلق به من مسائل الإيمان والملائكة والكتب والرسل والقدر وغيرها كما نجد هذا في سورة الإخلاص: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١-٤]، فإن هذه السورة تعدل ثلث القرآن، وقد بوب كثير من أهل العلم وأئمة الحديث أبواباً في كتبهم تحت هذا الباب من التوحيد والإيمان ومسائله وتقرير ذلك كالبخاري ومسلم وغيرهما.

ثم إن الله تعالى في كتابه في عشرات من الآيات ما ذكر الإيمان إلا وجمع معه

العمل وكذلك العمل إلا ودلل به على صدق وحقيقة الإيمان في القلوب فمن تلك الآيات القرآنية التي تدعوا إلى معرفة الله والإيمان به سبحانه، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل، والإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر:

قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال سبحانه وتعالى في شأن الملائكة: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].وقال عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].وقال عز وجل: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣،٢٤].

وفي شأن الكتب السماوية يقول تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وفي شأن التوراة يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].وفي شأن الإنجيل يقول عز وجل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].وفي شأن الزبور يقول جل وعلا: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]. وفي شأن الصحف يقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨،١٩].

وفي شأن القرآن الله سبحانه: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٢-٤].وقال

سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١،٤٢].

أما في شأن رسل الله عليهم السلام فيقول سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقال عز وجل: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].وقال سبحانه: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].وقال سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أما في شأن اليوم الآخر وأحواله يقول جل ذكره: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].وقال عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال جل ذكره: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣].وقال سبحانه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١،٢٢].

أما القضاء والقدر فيقول تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].ويقول

سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].وقال جل ثناءه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١].

فهل كل هذه الآيات القرآنية تدعوا إلى قضايا هامشية وثانوية، لا تعود على العبد بصلاح قلبه وقالبه، أم هي أساس الأيمان بالإسلام نفسه وشريعته؟

ثم إن علينا أن ندرك جيداً أن الإنسان مخلوق من مخلوقات الله عز وجل، وصلاح حياته مرهون بمعرفة الحق واتباعه، وفسادها نتيجة محتومة لجهله بالحق، أو تمرده عليه وإن عرفه. ولما كان الله سبحانه هو الحق، ومنه الحق، وأمره وتدبيره هو الحق، فإن سبب فساد الحياة البشرية كلها هو الكفر بالخالق، والكفر بأمره وتدبيره، والكفر بما أنزل من الحق، وسبب صلاح هذه الحياة كلها هو الإيمان بالله عز وجل. ولذلك قال عز من قائل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣،١٢٤].

ولا يتبع هداه إلا من آمن به وذكره، واستشعر وجوده، وصفاته، وعظمته سبحانه، ومن نسي ذكر الله أعرض عن هداه، والإنسان في هذه الدنيا ممتحن بهذين الأمرين:

١- ذكر الله وإتباع هداه.

٢-أو نسيانه والضلال.

فهو على مفترق طريقين لا ثالث لهما: طريق الإيمان والهدى والسعادة في الدنيا والآخرة، وطريق الكفر والضلال والشقاء في الدارين، لذا كان أشرف ما يتعلمه الإنسان، ويعلمه لغيره أمور الإيمان وأركانه ومقتضياته، وأحوط ما يحتاط ويتسلح به معرفة معالم الكفر وأسبابه ومقتضياته.

فإن كان على بصيرة من هذين الأمرين الخطرين، عرف الإنسان طريق سعادته فالتزمه، ولم يحد عنه، وطريق شقائه فاجتنبه،[1] ومن ثم كانت عقيدة التوحيد والإيمان،

---

(١) الإيمان وأركانه.نعيم ياسين.

ضرورة لا يستغنى عنها الإنسان ليستكمل شخصيته،ويحقق إنسانيته.

ولقد كانت الدعوة إلى عقيدة التوحيد والإيمان، أول شيء قام به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، لتكون حجر الزاوية في بناء الأمة الإسلامية. ذلك أن رسوخ هذه العقيدة في النفس الإنسانية، يسمو بها عن الماديات الوضيعة،ويوجهها دائمًا وجهة الخير والنبل والنزاهة والشرف، وإذا سيطرت هذه العقيدة أثمرت الفضائل الإنسانية العليا، من الشجاعة والكرم، والسماحة والطمأنينة، والإيثار والتضحية.(١)

أما الانحراف عن العقيدة الصحيحة فهو مهلكة وضياع، لأن العقيدة الصحيحة هي الدافع القوي إلى العمل الصالح، والفرد بلا عقيدة صحيحة، يكون فريسة للأوهام والشكوك التي ربما تتراكم عليه، فتحجب عنه الرؤية الصحيحة لدروب الحياة السعيدة. حتى تضيق عليه حياته، ثم يحاول التخلص من هذا الضيق بأنها حياته ولو بالانتحار، كما هو الواقع في كثير من الأفراد الذين فقدوا هداية العقيدة الصحيحة.

والمجتمع الذي لا تسوده العقيدة الصحيحة هو مجتمع ضال، ويفقد كل مقومات الحياة السعيدة، وإن كان يملك الكثير من مقومات الحياة المادية التي كثيرًا ما تقوده إلى الدمار، كما هو مشاهد في المجتمعات الضالة، لأن هذه المقومات المادية، تحتاج إلى توجيه رشيد للاستفادة من خصائصها ومنافعها، ولا موجه لها سوى هذه العقيدة الصحيحة قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون: ٥١].

فقوة العقيدة يجب أن لا تنفك عن القوة المادية، فإن انفكت عنها بالانحراف إلى العقائد الباطلة، صارت القوة المادية وسيلة دمار وانحدار كما هو مشاهد اليوم في الدول الغير إسلامية التي تملك مادة، ولا تملك عقيدة صحيحة.(٢)

---

(١) إسلامنا. للسيد سابق.
(٢) العقيدة الإسلامية. أحمد آل سبالك.

وهذه العقيدة الإسلامية تقوم على ستة أركان تسمى أركان الإيمان، وهي بإيجاز كما يلي:

١- الإيمان بالله تعالى: ربًا وإلهًا موصوفًا بكل كمال، منزهًا عن كل نقص.

٢- الإيمان بملائكة الله: وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، خلقهم الله من نور، منهم الحفظة على العباد، ومنهم الموكلون بقبض الأرواح، ومنهم خزنة النار، ومنهم غير ذلك.

٣- الإيمان بكتب الله: وأنها من وحي الله تعالى إلى من اصطفاهم من رسله، تحمل الشرائع والهدى والنور للمؤمنين المتقين.

٤- الإيمان برسل الله: مبشرين ومنذرين، قطع الله تعالى بهم على الناس الحجة، وبين بهم للعباد المحجة، فمن آمن بهم وأطاعهم، واتبع هداهم نجا، ومن كفر بهم وعصاهم، واتبع غير هداهم هلك.

٥- الإيمان باليوم الآخر: وأنه اليوم الذي تنتهي فيه هذه الحياة، وتكون فيه الحياة الآخرة حيث البعث والحساب والجزاء والجنة والنار.

٦- الإيمان بالقضاء والقدر: وكون القضاء والقدر نظام للحياة كلها لا يخرج بشيء منها وإن قل، عما حواه كتابه الذي هو اللوح المحفوظ، حيث كتب الله تعالى فيه كل ما قضى بوجود من خير وشر في الدنيا، وسعادة وشقاء في الآخرة.

فهذه الأمور الستة هي أركان الإيمان والعقيدة، وهي الأصول التي بعث بها الرسل جميعًا عليهم صلوات الله وسلامه، ونزلت بها الكتب، ولا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا، على الوجه الذي دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن جحد شيئًا منها خرج عن دائرة الإيمان وصار من الكافرين.

هذه هي حقيقة الإيمان الذي لا يلتفت إليها كثير من العاملين للإسلام ودعوته اليوم، **ولكننا مع ذلك نقول للإنصاف فحسب يجب أن نفرق بين أمرين كبيرين:**

الأول: قضايا الإيمان الأساسية التي هي أصول الشريعة والدين.

الثاني: قضايا الخلافات بين الفرق التي تظهر بين وقت وآخر على طول التاريخ.

فالقضايا الأصول واجب شرعاً تعلمها وفهمها، أما القضايا التي تثار فيجب الوقوف عندها بجدها فما انتهى زمانه والخلاف فيه، نعم يجب ألا نعيد الكرة عليه ونحيي به مواتاً من الفتن. ولكن قد يستلزم الكلام فيها وتبيين الحق فيها إذا كان في الواقع ما يلزم ذلك، فلا نقول اليوم إن الكلام على مذهب الشيعة ومنهجهم عفى عليه الزمان، لأنهم لا يزالون بيننا، بل ويسعون للقضاء على أهل السنة وجعلهم في أضيق الخناق، بل ويسعون لتشييع العالم الإسلامي..

الشيعة والروافض مثال ذلك:

فالشيعة الأوّل لربما يتأول لهم بعض أهل العلم بحسن النوايا منهم وسوء الفهم لنصوص الكتاب والسنة إلا أن شيعة زماننا لا يتأول لهم بذلك إلا السوقة والجهلة منهم ومن عامتهم، أما علماؤهم وأئمتهم الذين يزعمون فيهم العصمة والرفعة والتنزه عن الصغائر والكبائر معاً لربما لا يغتفر لهم ذلك؟

لأنهم على علم صحيح بما وقعوا فيه من التحريف والتأويل الباطل بل وإنشاء النصوص والأدلة المزعومة من كتب أئمتهم وعلمائهم على صحة مذهبهم الباطل في جملته وتكفيرهم وسبهم لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم جميعاً، بل وتفسيراتهم الباطلة لنصوص الكتاب والسنة في حق على رضي الله عنه وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً.

يقول نعمة الله الجزائري: "إننا لا نجتمع معهم -يقصد أهل السنّة- على إلهٍ ولا على نبيٍ ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إنّ ربهم هو الذي كان محمد نبيَّه، وخليفته من بعده أبو بكر.. ونحن نقول: "إنّ الربّ الذي خلق خليفةَ نبيّه أبا بكرٍ ليس ربَّنا، ولا ذلك النبيُّ نبيَّنا" [(١)].

وكذلك قولهم بتحريف القرآن ولا أريد أن أنقل كثيراً من كلامهم كما جاء في الكافي عن جعفر بن محمد الصادق قوله: "عندنا مصحف فاطمة عليها السلام، وما يدريهم ما مصحف فاطمة.. مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه

(١)الأنوار النعمانية.(ج٢/٢٨٧).

من قرآنكم حرف واحد" [١]. ويقول محمد باقر المجلسي: "إنّ كثيراً من الأخبار صريحة في نقص القرآن وتغييره، ومتواترة المعنى" [٢].

وقال نعمة الله الجزائري: "الأخبار مستفيضة بل متواترة، وتدل بصريحها على وقوع التحريف في القرآن كلاماً ومادةً وإعراباً" [٣]. ويقول الخميني: "لقد كان سهلاً عليهم -أي على الصحابة الكرام- أن يُخرجوا هذه الآيات من القرآن، ويتناولوا الكتاب السماويَّ بالتحريف، ويُسدِلوا الستار على القرآن، ويُغيِّبوه عن أعين العالمين.. إنّ تهمة التحريف التي يوجِّهها المسلمون إلى اليهود والنصارى، إنما ثبتت على الصحابة" [٤]. وجاء في فصل الكتاب عن النوري الطبرسي أن الصحابة ما صانوا أمانة القرآن حتى أسقطوا: "آية الولاية من سورة الشرح "**ألم نشرح لك صدرك**"، وهي: "ورفعنا لكَ ذكرك، بعليٍّ صهرك".

ولكن الأدهى من ذلك في الواقع المعاصر اليوم أن تتحول الشيعة من مذهب وفرقة تنتسب إلى الإسلام بما لديها من أفكار ومعتقدات وأهواء. تتحول إلى مذهب سياسي، له قواعده وأصوله وأفكاره ومناهجه، فمنذ نشأة ما تسمى بثورة الخميني الخمسينية لاجتياح العالم الإسلامي وتشييعه والدولة الفارسية تتفاخر بأنها فارسية الأصل والنسب والمعتقد كذلك. بل وتسعى كذلك بما تملك من مقدرات للتدخل الكبير المباشر وغير المباشر في شؤون المسلمين هنا وهنالك ومحاولات كثيرة من ذلك قد نشأت كهذا الحزب الذي يسمى "**بحزب الله**" وما هو بحزب لله، وكذلك تدخلهم في شؤون العراق.

بل ونصب المحارق والمشانق لأهل السنة هناك الواقع العراقي اليوم خير شاهد على ذلك، ولم يلبث الشيعة أن سعوا بجهود خفية تارة ومعلنة تارة لتشييع العالم الإسلامي، وزيادة المد الشيعي الماكر فيه وعلى رأسه بلاد الحرمين ومهبط الوحيين

(١)الكافي.(ج1/٢٣٩).
(٢)مرآة العقول.(٢٥٣).
(٣)الأنوار النعمانية.(ج٢/٣٥٧).
(٤)كشف الأسرار.(١١٤).

السعودية وأرض الكنانة مصر، ومحاولة استرجاع دولة العبيديين والفاطميين التي اجتاحت العالم الإسلامي منذ قرون ليست بالبعيدة، وانتشارهم في البحرين والكويت والإمارات وغيرها من الدول الإسلامية والعربية.

ومما يؤسف له حقاً أن تفتح لهم بعض الدول وتتيح لهم الحركة والحرية تحت مسمى حرية الأفكار والمعتقدات حتى إذا وقعت الكارثة وبان الخفي من المكر والعبث اضطرت باتخاذ الإجراءات اللازمة، وهذا لا ريب نوع من العبث أيضاً بمعتقدات الأمة أن تسمح دول أهل السنة. أن يسب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بل وزوجاته الطاهرات العفيفات، وأن يكفروا أعلام الأمة وأسيادها من أمثال الصديق والفاروق وعثمان ممن زكاهم القرآن وزكاهم النبي صلى الله عليه وسلم. وأن تؤسس لهم المقار والمؤسسات تحت أسماء ومسميات. فهذا كله مما يؤسف له حقاً في بلاد تقر بالتوحيد وتوقر الصحابة وتقرأ القرآن في حقهم.

لقد تحول مسارهم إلى مطامع سياسية وجغرافية إلى كونهم معتقد خبيث ماكر جمع من كل ملة ما يهوى وخلط ما بين اليهودية تارة والنصرانية تارة أخرى والصوفية وغيرها، كما جاء عند الكُلَيني في أصول الكافي عن زرارة بن أعين: "ما عُبِدَ الله بشيءٍ مثل البداء". كما يروي عن أبي عبد الله زاعماً أنه قال: "ما تنبّأ نبيّ قط حتى يُقرَّ لله بخمس: بالبداء والمشيئة والسجود والعبودية والطاعة". وهذا البداء يعني أن يظهر الأمر بعد أن كان خافياً، وفي هذا تنقص لجناب الله تعالى[١].

إن الشيعة خطر قادم ومكر داهم إذا لم يتنبه له المسلمون عامة وعلماء الأمة والدعاة وكذلك الساسة وأصحاب القرار خاصة، وإلا إن كنا نتخوف من الخطر الصهيوني اليهودي والخطر الغربي الصليبي فأقول إن الخطر الشيعي هو الخطر والخندق الحقيقي القريب إلينا لأنه يلبس لنا عباءة الإسلام والتدين المزعوم. ولأن كثيراً من الناس من اليسير جداً أن ينخدع بدعاوى محبة أهل البيت والتغني بذلك، فإذا به في شراك القوم وهو لا يدري.

---

(١) أصول الكافي.(ج1/١٤٦).

ففي كل موطن يتغنى الشيعة بحب آل البيت، ونصرتهم، والـولاء لهـم، ومحبـتهم والدفاع عنهم، وحب فاطمة وعلى رضي الله عنهما، وكذلك قولهم في الحسين رضي الله عنه وعن أبيه، حتـى أطلـوا علينـا في هـذه القـرون المتـأخرة، يرفعـون عقيرتهـم، ويشهرون سيوفهم الزائفة، ويقولون نحن سنحرر القدس، ونحن سندك اليهود، ونحـن نصرة الإسلام وأعداء الأمريكان، إلى غير ذلك مما يقولون ويزعمون. وحقيقـة الأمـر أنها دعاوى زائفة، متجردة عن الصدق والبرهان، والواقع خير شاهد على ذلك.

وإن أهل السنة اليوم أحق بذلك كله منهم، وأولى بهم منهم، لأن أهـل السـنة لا يحقرون أهل البيت، ولا يقللون من مكـانتهم السـامية، بـل هـم علـى خـلاف ذلـك أصلاً، لأنهم يعتقدون أن محبة آل البيت ، ونصرتهم، وإجلالهم طاعـة وقربـى إلى الله تعالى، كما أن أهل السنة أحق وأولى بقضية القـدس وفلسـطين مـنهم، وأولى بمسـرى النبي صلى الله عليه وسلم، وبفتح الخليفة الراشد عمر بـن الخطـاب رضـي الله عنـه، **وهنا لا بد لنا هنا من وقفات:**

الوقفة الأولى: نحن أولى بآل البيت ونصرهم من الشيعة: نعـــم نحـــن أولى بـــآل البيـــت ونصرهم ومحبتهم وموالاهم من الشيعة أنفسهم لماذا؟

أولا: لأن محبة آل البيت واجبة على كل مسلم منتسـب للإسـلام، مصـدق بنبـوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر مسلم به لا إشكال فيه.

ثانياً: لأن المحبة تلزم أصحابها بقيود وشروط لا بد من الوقوف عنـدها، فمنهـا: الحـب لله تعـالى، والحـب لشـرف القـرب والـرحم مـن رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم،وكذلك المحبة لشرف الصحبة والمتابعة. ومنها كذلك ترك الغلـو في المحبـة ،فـلا تصل المحبة بأهلها إلى رفع المحبوب إلى منزلة لا تحل له، أو تصفه بما ليس فيه، أو تجعل له ما لا يكون إلا لغيره، ومنها كذلك الموالاة والنصرة فيما وافق الحق، وإلا لصـارت مناصرة ومعاونة على الإثم والعدوان.

وحقيقة ذلك أن الشيعة لم يقفوا عند قيود المحبة والموالاة التي جاءت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسـلم، فلقـد تعـدوا حـدود الله تعـالى في محبـتهم

وموالاتهم حتى وصل بهم الأمر إلى أن يضعوا النصوص الحديثية فيما يقرب من ثلاثمائة ألف حديث لمدح آل البيت.

مع أن الشريعة نهت عن الإطراء والمدح الذي يصل بالعبد إلى الغلو في الممدوح، حتى زعموا وقالوا: "إن السماء أمطرت دماً عبيطاً يوم قتل الحسين ، وأنه ما رفع مسجد في الدنيا إلا وجد تحته دم عبيط"، قال ابن تيمية رحمه الله: كل ذلك كذب.

وكل الأحاديث التي جاء فيها سبي يزيد لأهل البيت وتقبيح معاوية والصحابة خاصة أبو بكر وعمر فكل هذه الأحاديث مكذوبة لا أصل لها، وكذا الأحاديث التي جاءت في المغالاة ورفع علي رضي الله عنه عن مكانة البشر وعلوه إلى مكانة الألوهية كلها كذب، ومن أمثلة هذا ما زعموه أن علياً في خيبر نصب يده ليمر عليها الجيش فوطئته البغلة فقال لها: قطع الله نسلك فانقطع نسلها بدعائه.(١) وكذلك غلوهم في مسألة الإمامة وتفضيل على رضي الله عنه على أبي بكر وعمر فيها رضي الله عنهما، وأنه أحق بها منهم، مماجعل الشيعة يدخلون في لعنة أبي بكر وعمر، ولا أدري متى كانت أولوية الإمامة تستوجب لعناً وغضباً حتى يصير سنة متبعة وعبادة في مذهبهم وعقيدتهم.

وخلاصة ذلك أن الشيعة تعدوا حدود الله تعالى في المحبة والنصرة والولاية لآل البيت وزعموا فيهم ما ليس لهم، حتى قالت السبئية منهم برجعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا كذلك بوصاية ونبوة علي رضي الله عنه، وقالوا أيضاً بالحلول وبالألوهية وغير ذلك، ومنهم القائلون بتكفير الصحابة والطعن فيهم وهذا واضح في صلاتهم وخطبهم.

أما أهل السنة فقد أنزلوا آل بيت النبوة مكانتهم، وعرفوا لهم قدرهم من الإجلال والإكبار والحب والتوقير ما ليس عند غيرهم، بل ويصلون عليهم في كل صلاة من صلواتهم ويسلمون، بل وفي دعائهم يقولون كما قال النبي صلى الله عليه

---

(١) انظر الفوائد الموضوعة للشيخ مرعي الكرمي.

وسلم: "**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد**"، ومع ذلك لا يزعمون فيهم العصمة لأنها ليست إلا للأنبياء والرسل، ولا ينتقصون قدرهم، بل يقفون مع الأدلة التي أمرت بالمحبة والموالاة والنصرة فيما لا تعدي فيه على حدود الله ورسله.

الوقفة الثانية: نحن أولى بفلسطين والقدس من الشيعة: نعم ونحن أولى منهم كذلك بمناصرة قضيتنا الكبرى القدس والأقصى، بل وكل مقدس إسلامي الهوية والمنشأ، وهنا أقف سريعاً أمام نصين:

الأول: للأستاذ محمد كرد علي في كتاب خطط الشام حيث يقول: "والغريب أن شيعة جبل عاملة كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين إلا قليلاً، كما أن هوى الموارنة مع الصليبيين ويعملون عندهم أدلاء وتراجمة".

الثاني: ما نقل عن بعض المؤرخين في النجوم الزاهرة لابن تغري: "قال ولم ينهض الأفضل [أي الفاطمي] بإخراج عسكر مصر [أي عند دخول الصليبيين فلسطين] وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال".

وهذا كما قال ابن تغري يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه، ومن هنا نعلم حقيقة الشيعة الفاطميين الذين كانوا سبباً كبيراً كذلك في احتلال القدس وسفك الدماء وتمزيق الأشلاء من المسلمين بالآلاف المؤلفة، في يوم دخلوا فيها القدس - حررها الله من كل دنس - فالدولة الفاطمية بتتبع تاريخها القاتم في هذه المرحلة نرى أنها تكاسلت تماماً عن قضية الصليبيين والقدس بل والشام، حماية لأملاكهم وأطماعهم من شر السلاجقة.

حتى أن أسد الدين شيركوه استعان بالوزير الفاطمي المسمى ضرغام ليكون وسيطاً بينه وبين الصليبيين، فلما علم تدبيره لهم باغته يومها في تل بسطة وانتصر عليه، وظلت هكذا حتى بعث لها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، فطارد الصليبيين، وأنكى الهزيمة بالمذهب الشيعي في مصر والشام(١).

---

(١) حزب الله. لسيد العفاني.

واليوم يظهر الشيعة من جديد ليقولوا للعالم كله في خداع ومكر وخبث شديد أننا محرروا القدس، وناصروا الإسلام والمسلمين. ولا أدري كيف ينصر القدس ويحرر الأقصى من سلمها لأعداء الأمة بيد بيضاء؟ ولا أدري كذلك كيف يفتحون القدس ويحاربون اليهود، وقد فتحها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهم يلعنون عمر وحزب عمر، فكيف يفتحها بعد عمر من عبادته في صلواته لعن عمر والصحابة؟ والتاريخ اليوم خير شاهد على ذلك.

وأين كانت صواريخ حزب الله من الصهاينة يوم أن دخلوا جنين والخليل والضفة، وأين كانت دباباتهم يوم أن حاربوا بسيف من البطش والحقد الأسود الدفين في غزة، ولماذا إلى اليوم لم يحرروا القدس وفلسطين فضلاً عن العراق والجولان؟ الجواب إنه المكر والخداع ،والحرب الكلامية والسياسية التي لا تكون إلا في حوزتهم ومصالحهم وأطماعهم، وكما قلت من قبل: لقد تحول مسارهم إلى مطامع سياسية وجغرافية إلى كونهم معتقد خبيث ماكر جمع من كل ملة ما يهوى وخلط ما بين اليهودية تارة والنصرانية تارة أخرى والصوفية وغيرها.

فليس للقدس اليوم إلا أهل السنة الذين فتحوها أول الأمر ودخلوا المسجد بالتوحيد والتمكين فاتحين مناصرين، ولن ينصر القدس يوماً من سلمها لأعدائه بيد بيضاء مخزية.

الوقفة الثالثة: نداء إلى المخدوعين بزيف الشيعة: أقول هل يفيق النائمون، وهل يعقل الجاهلون، وهل يدرك الخطر الداهم، والمكر القاتم كل منتسب لأهل السنة لا يزال يوالي هؤلاء المخادعين، ولا يزال يضع يده في أيديهم وينادي بالتقارب بيننا وبينهم، ونزع العداوة من أهل السنة لهم، وإني لأقول: أهل السنة لا يعادون بهوى ولا لهوى إنما هم قائمون على حدود الله فيها، لا إفراط ولا تفريط ، فليترك الشيعة عداوتهم لمن أمر الله ورسوله بمحبته ونصرته، وليتوقفوا عن مناصرة أعداء الأمة من الشرق والغرب ضد إسلامهم الذي يزعمون، عندها لن يكون إلا مناصرتهم ومحبتهم إن استقاموا على شريعة الإسلام ومحبة أهل السنة المتبعين لآل البيت وسائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فهل لنا بعد كل ذلك أن نقول هذه قضايا عفى عليها الزمان، وخذ على ذلك جميع الفرق والطوائف كالصوفية والخوراج والمعتزلة والأشاعرة. فإذا وجدنا سائغاً لمناقشة هذه القضايا لبيان منهج أهل الإيمان والسنة، والتحذير من خطر المخالفين، فلا علينا أن يكون ذلك من قبيل الواجب الشرعي.

الشبهة الثالثة: قولهم: **أن المنهج السلفي منهج تقليدي جامد، لا تجديدي مساير مع ما سموه بروح العصر**، وهذه شبهة باهتة يغني فسادها عن إفسادها، وبطلانها عن إبطالها، وقد أشرنا إليها في مطلع هذا المحور.

الشبهة الرابعة: قولهم: **أن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، من توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات تقسيم مبتدع**، وهذا أيضاً كلام فاسد، لأن هذا التقسيم تقسيم اصطلاحي علمي، كما نقسم العلوم والمعارف إلى أقسام وتفريعات مختلفة لتسهيل العلم بها، فهذا من قبيل تقسيم علم النحو والحساب والفقه وأصوله وسائر العلوم، فما الضير إذاً من تقسيم علم التوحيد والعقيدة. وقد جاء القرآن بها كلها.

الشبهة الخامسة: **قولهم: أن السلفيين مشغولون بقضايا فرعية كالوضوء والحيض والنفاس والصلوات، عن القضايا الكلية والمصيرية للأمة، وهذا أيضاً من قبيل الوهم النفسي والواقعي لواقع العمل الإسلامي. لماذا؟** لأن طلب العلم وتعلم الأمور والأحكام الشرعية الواجبة خاصة وجوباً عينياً يستلزم تعلمها في الحال، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالمؤذن يؤذن للصلاة، فالواجب هنا تعلم مسائل وأحكام الآذان، وتعلم فقه الوضوء، وتعلم فقه المساجد، وتعلم فقه وأحكام الصلاة، وما يصح فيها وما لا يصح، كل هذا في واجب عيني واحد، فكيف بالمسائل الأخرى كالصيام والحج والعمرة والبيع والشراء والإجارة مما يحتاجه المسلم يومياً أو مثل ذلك.

فهل يصح إذاً ترك كل هذه الأحكام الشرعية الواجبة عيناً، بحجة أن هذا ليس وقته، وأن الأمة في مواجهة مع الأعداء. فما علاقة المواجهة إذاً بتعلم أحكام الإسلام وفرائضه، مع أن القرآن والسنة رفعا مكانة العلم وأهله وحملته، بل وجعل العلم قرين الجهاد وأرفع درجة.

وما ذلك كله إلا لأن العلم من المصالح الضرورية التي تقوم عليه حياة الأمة،

بمجموعها وآحادها، فلا يستقيم نظام الحياة مع الإخلال بها، بحيث لو فاتت تلك المصالح الضرورية لآلت حال الأمة إلى الفساد، ولحادت عن الطريق الذي أراده لها الشارع، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "والحفظ لها- أي للمصالح الضرورية- يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها، ويثبت قواعدها، وذلك بمراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم[١]".

والعلم بلا ريب يسلك في هذه المصالح الضرورية التي تجب مراعاتها من الجانبين المذكورين، وذلك للأسباب التالية:

١- لأن حاجتنا إليه لا تقل عن حاجتنا إلى المأكل والمشرب والملبس والدواء إذ به قوام الدين والدنيا.

٢- لأن المستعمرين، بل المحتلين الحاقدين، إنما احتلوا بلاد المسلمين لأسباب كثيرة، بيد أن من أهمها جهل المسلمين.

٣- انتشار المذاهب الهدامة، والنحل الباطلة، وما حدث ذلك إلا لأنها وجدت قلوبًا خالية فتمكنت منها كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

فإن القلوب التي لا تتحصن بالعلم الشرعي، تكون عرضة للانخداع بالضلالات،والوقوع في الانحرافات.

٤- وإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[٢]، وهذه قاعدة شرعية معلومة وواضحة. والعلم الذي يطلبه الإسلام هو: الوحي: كتابًا وسنة، عقيدةً وشريعة، والعلوم المستمدة من الوحي منها: التفسير، والسنة، والتوحيد،

---

(١) الموافقات. للشاطبي.

(٢) العلم ضرورة شرعية.ناصر العمر.

والفقه. وما وراء ذلك من علوم الكون فهو مما يدعوا إليه الإسلام، ويحث عليه لتعرف سنن الله في الكون، وأسراره في الخلق، وحكمته في الوجود، ودراسة العلوم الكونية والإنسانية لا تقل في أهميتها عن دراسة العلوم الشرعية، وهي علوم الطبيعة، والكيمياء، والفلك، والأحياء والنبات، والنفس والاجتماع، والتاريخ العام.(١)

وقد تبنى القرآن الكريم الدعوة إلى مثل هذه العلوم في محكم آياته، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧،٢٨]، والمقصود بالعلماء في هذه الآية علماء الكون والماء والنبات والجبال والناس والدواب والحيوانات لا العلماء بالصلاة والصيام والزكاة والحج فحسب وإن كانوا هم أولى بها. وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣،٤٤].

وقال عز وجل: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾

---

(١) عناصر القوة في الإسلام. للسيد سابق بتصرف.

[الذاريات: ٢١،٢٠].وقال عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤،٥٣].وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]. فكل هذه الآيات الكريمة وغيرها تتحدث عن العلوم الكونية والإنسانية والتي دعا إليها القرآن الكريم وأكد الدعوة على طلبها.

أما الآيات التي تدعوا إلى العلم النافع عمومًا وإطلاقًا و الحث على فضله وطلبه، سواء أكان هذا العلم في أمور الدين أو الدنيا فهي كثيرة كذلك فمنها:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَّعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].وقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].وقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد: ١٩].وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فكل هذه الآيات داعية إلى العلم وشرفه وطلبه، ناهيك عن السنة ونصوصها، فلا علاقة إذاً بين كون الأمة تتعلم شؤون دينها وبين الجهاد وقضايا الأمة، اللهم إلا إن

دهم العدو بلاد وديار المسلمين، فالواجب حينئذ الجهاد والقتال وترك كل شيء لأن العدو فساده عند ذلك لا يقاوم بشيء.

ولكن هل تترك الأمة العلم والعمل حتى تتحرر بلاد الإسلام، وهل نترك العلم والعمل حتى تنتهي قضايا الأمة، وهل ننتظر حتى تعود الخلافة لتحل لنا كل مشكلاتنا، إنه الوهم النفسي، والوهم الدعوي، الذي لن يكون طريقاً للتمكين مهما طال الزمان. علينا أن نعلم أن العقيدة والتوحيد هي أكبر قضية في الإسلام، وعلينا أن نعلم أن طلب العلم من أكبر قضايا الأمة اليوم.

وعلينا أن نعلم أن العودة إلى منهج السلف الصافي من أكبر القضايا لتوحيد الصف الإسلامي، هذه هي القضايا الكبرى، فإذا فهمت حقاً لانتهت كل قضايا الأمة، إن قضية المسلمين ليست في أعدائهم وليست فيما يخططون، وإنما فيما أصاب الأمة من ضعف ووهن في شتى مجالات الحياة الإنسانية.

الشبهة السادسة: قولهم: أن السلفيين لا يسيرون إلا على مذهب واحد ألا وهو المذهب الحنبلي – المتشدد – في نظرهم، ولا يهتمون ببقية المذاهب الإسلامية أو الفقهية الأخرى، خصوصاً في أبواب التيسير على الناس.

وهذه الشبهة أوهى من خيط العنكبوت، لماذا..؟ لأنه يخالف واقع المنهج السلفي والسني على طول التاريخ الإسلامي، لأننا إذا تأملنا في نشأة الفقه الإسلامي كمذاهب فقهية، فإننا سنقف أول ما نقف على مدرسة الإمام مالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم، وكذلك الإمام الشافعي محمد بن إدريس وأحمد بن حنبل، وإذا كان الناس يقولون أن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل فإننا نقول إن أول من لقب بمثل هذا الإمام الشافعي رحمهم الله جميعاً.

وهؤلاء الأئمة جميعاً وغيرهم كادوا أن يتفقوا على مثل هذا القول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، أو إذا خالف قولي الحديث الصحيح فاضربوا بقولي عرض الحائط، وكل هؤلاء الأئمة وغيرهم من أهل السنة والسلف الصالح ليسوا من أهل التقليد، ولا من أهل الأهواء والبدع كذلك، ولكنهم حقيقة الأمر أمروا أتباعهم بعدم

التقليد، وأمروا بالعلم بالدليل الذي أخذوا به قبل الاستدلال بقول فلان أو فلان من أهل العلم.

فهذا الشافعي رحمه الله فيما نقل عنه في كتابه الأم أنه نهى أن يأخذ بقوله إلا بعد العلم بدليله الذي قال به قوله هذا، وهذا مثال آخر الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كان مدرسة فقهية بذاته، مع انتسابه للمذهب الحنبلي فقهاً واجتهاداً، لكنه بلغ رتبة الاجتهاد والبحث والاستدلال، فلم يقف بهذا عند حدود مذهبه الفقهي لكنه اجتهد وقعد وأصل، وهذب ونقح، وزاد وأفاض، حتى أنه كانت له اجتهادات مخالفة في بعض المسائل وهي قليلة جداً بالنسبة لسعة علمه وتأصيله، وهذا وارد فلا عصمة لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد عادت تأصيلات المنهج السلفي فيمن بعده إلى اليوم، بفضل الله تعالى، ثم إلى هذا الرجل الأصولي، والذي حرص على إحياء معالم الشريعة الإسلامية فيما استطاع من جهد وعلم واجتهاد صحيح، وكانت له اليد الطولى في ذلك.

وبالتأمل إلى منهج السلف والسلفية، نعلم فضل هذا الرجل في تجديد الإسلام بصفائه وشموله، وما من آخذ اليوم إلا وقال قال ابن تيمية، سواء كان على منهج السلف أو على خلافه، وهذا لإنصاف الرجل، وأنه صاحبه الكلمة المسموعة، والاجتهاد الواسع، والفهم الدقيق، والتأصيل العميق، وكذلك صار على منهجه تلميذه النجيب شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية عليه رحمة الله تعالى. وقد سبق معنا الإشارة في جملتنا – المنهج السلفي منهج تجديدي لا تقليدي – نعم، منهج يأنف التقليد بلا علم أو فقه أو بصيرة، من دليل من كتاب الله وسنة صحيحة عن رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع لا خلاف فيه.

فالمنهج السلفي ليس كما يقال عنه أنه على مذهب واحد، هذا في الأصل خلاف منهج السلف أنفسهم كما بينت الآن، بل إن هذا المنهج يرفض التقليد بلا علم أو استدلال صحيح، كما أنه يقوم على الاتباع الصحيح، وهذا الاتباع يعني الدليل أولا من كتاب الله تعالى، ثم الصحيح من السنة النبوية، ثم الإجماع، ثم ما وافق الحق من دليل آخر أو قياس صحيح.

وأتباع المنهج السلفي فيهم المالكي المذهب، والحنفي والشافعي والحنبلي وغير ذلك مما صح إلى السلف الصالح، فليس بصحيح أن يقال أن السلفيين هم أتباع المذهب الحنبلي، فهذه مغالطة مكشوفة، وقلة بضاعة في العلم معروفة.

والقائلون بمثل هذا الكلام يحتاجون حقيقة الأمر إلى تعمق واسع، ودراسة متأنية، واطلاع صحيح على تاريخ المذاهب الإسلامية أعني الفقهية، وعلى تاريخ السلف أو المنهج السلفي من جانب آخر، وإلا فإن هذا مخالف لكل هذا التحقيق الصحيح الواضح.

ثم إن رمي مذهب الإمام أحمد – الحنبلي – بالتشدد هذا كذلك قول غير صحيح، وخلاف مذهب أهل السنة أولاً، ثم هو خلاف مذهب الإمام نفسه، لأن الإمام أحمد من المحدثين الكبار، ويكفينا بياناً وتصديقاً لمثل هذا كتابه الكبير المسند، فهذا الكتاب يدل على سعة علمه، وكمال استدلاله بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، ثم الإجماع، ثم قول الصحابي عنده وغير ذلك.

فهل إذا اختار الإمام قولاً أو احتج في مسألة ومعه فيها دليل من كتاب الله وسنة رسوله يسمى هذا تشدداً، بل القائل بمثل هذا وقع في تخبط وجهل بحقيقة بناء الأحكام الشرعية وطرق الاستدلال بها على الوجه الصحيح.

الشبهة السابعة: قول البعض ممن قل علمهم في الكلام في هؤلاء الأئمة، وأنهم أي أصحاب المنهج السلفي، لا يعتمدون على أقوال الفقهاء من أهل العلم، إنما اعتمادهم على أهل الحديث والأثر فحسب، وهذا كذلك نوع من سوء الفهم وإدراك العلم. لماذا؟ لأن الفقهاء بالفعل ليسوا هم إلا أهل الحديث وأتباع الأثر، وهل متابعة أهل الحديث سبة أو مذمة، وهل كان الإمام مالك إلا محدثاُ فقهياً؟ وهل كان الشافعي إلا محدثاً فقهياً؟ وهل كان أحمد إلا محدثاً فقيهاً؟

وهل كان الأوزاعي والثوري وابن المسيب وغيرهم إلا هؤلاء..؟، ولكن منهم من غلب عليه الفقه كما يقال، ومنهم من غلبت عليه علوم اللغة، ومنهم من غلبت عليه علوم الحديث والتأصيل والرواية والدراية، وهكذا. نعم هناك من لا يعرف له

فقه كثير، ولا نقل عنهم لأنهم اكتفوا بالتحديث والرواية، لكن هذا لا يعني أن ننكر الجم الغفير من أهل العلم من المحدثين والفقهاء. كما أن هناك من عرف واشتهر بالتأصل والاستدلال والاستنباط فعرف عنه الفقه وأصوله، لكن كل هذا لا يخالف الأصل العام، ولا حياة هؤلاء الأئمة ولا اجتهادهم. وكفي بعلمهم وتاريخهم وتراجمهم على ذلك شاهداً.

وإننا نؤكد بوضوح أن عدم تقليد الأئمة في كل ما جاء عنهم لا يعني ذلك أيضاً من وجهة آخر نبذ الأئمة وفقههم وعلمهم، كلا. كلا. إنما هم أئمتنا، ومصابيح الدجى لنا، وهم القوم وحسبك بهم وبعلمهم أن أئمة أهل السنة، وأنهم الثابتون على الحق عرفوا، وأنهم القائمون به ذكروا، وأنهم الناصرون للسنة والملة صمدوا، وهم دواوين السنة والفقه وأئمته، وهم أصحاب التأصيل الشرعي وسادته، ولكن الحق أحب إلينا من كل أحد، ما دام أنه ثبت بالدليل الصحيح، والفهم الصحيح أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

إن التقيّد بالدليل، والاتباع الشرعي يعني اتباع الكتاب والسنة فحسب، لا يعني الجمود على قول أحد من أهل العلم مهما كان، لأنهم علمونا ذلك، بل وشددوا النكير، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

الشبهة الثامنة: قولهم: أن الدعوة السلفية تفرق ولا تجمع، لأنها فرقت بين الجماعات والفرق والدعوات اليوم، وهذه الشبهة واقعة بين أمرين:

الأول: أن اتباع هذه الدعوة الصافية نعم يفرق، ولكن يفرق بين الحق والباطل، ويفرق ولكن بين أهل الحق وأهل الباطل، ويفرق ولكن بين السنة وأهلها والبدعة وأهلها. يفرق لأنه يميز بين من هو على طريق الحق والإيمان والاتباع، وبين من هو على طريق أهل الزيغ والتفرق والابتداع، يميز بين دعاة السنة وأتباع الكتاب والسنة بمنهج السلف الصالح، وبين دعاة التفرق والتحزب وأتباع الشيوخ والدعاة بتقليد لا تراجع فيه عن خطأ، وهذا بالفعل هو واقع دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

ألم تقل قريش حين بعث رسول الله أنه يفرق بينهم، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأمه، وبين المرء وزوجه، لأنه جاء بالهدى وشريعة الحق، فلا بد إذاً من تمييز الصف المسلم المستقيم، الملازم لمنهج النبوة من غيرهم من الناس..

ولا بد من أن يقف الصف المسلم في خندق واحد، ويقف أهل الباطل والكفر في خندق واحد، حتى يميز الله الخبيث من الطيب. إذاً القول بأن السلفية أو منهج السلف مفرق قول صحيح ولكن بهذا المعنى الذي ذكرته وبينته، بل إن هذا هو حقيقة دعوة الإسلام.

والعجب أن هذه في الأصل ليست بسبة في وجه المنهج السلفي إذ أنه ما من منهج صحيح كان أو غير صحيح إلا ويفرق بين الناس، فهل الكفر والشرك لا يفرق بين الناس؟ وهل الفرق المنحرفة والمبتدعة من الشيعة والخوارج والمعتزلة والصوفية وغيرها لم تفرق بين الناس؟ وهل الأحزاب والسياسات الحزبية والغربية منها لم تفرق بين المسلمين؟

بل وهل الجماعات الإسلامية اليوم لم تقع في كثير من مثل هذا؟ أمر عجب أن يتهم المنهج أو قل أصحابه بأمر قدري كوني واقع لا محالة، لكن علينا أن نفرق بين منهج يبين للناس الحق فيفترق الناس عن الباطل وأهله، وبين مناهج تزج بالناس إلى الهاوية، وما أدراك ما هيه، نار حامية.

الأمر الثاني: القول بأن اتباع السلف ومنهجهم يفرق بين الدعاة والعاملين، وكذلك بين الأمة الإسلامية وبعضها، فهذا القول لا نصيب له من الصحة لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – ما جمع أمته إلا على كل خير، وما نهاهم إلا عن كل ضلالة وشر، فلئن كانت متابعة الصحابة ومن تبعهم من السلف الصالح تفرق، فمعنى هذا أنه منهج مخالف للكتاب والسنة، ومعنى ذلك أيضاً أنهم لم يكونوا على الهدى المستقيم ، وهذا ولا ريب وهم وخطأ كبير وفاحش في حقهم.

لأن الثابت من نصوص الوحيين الكتاب والسنة بل وعمل السلف أنفسهم كما بينا من قبل، خلاف ذلك، فهذا عبد الله بن مسعود وابن عمر وابن عباس رضي الله

عنهم يشددون كثيراً في مواقف مختلفة على وجوب ملازمة الكتاب والسنة واتباع من وافقهم من الصحابة وغيرهم.

ثم إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمر باتباعهم وسلوك منهجهم فإنهم على سنته، فمن قال بأن اتباع هذا المنهج يفرق، فقوله مردود عليه، وباطل بالكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، وما اجتمعت الأمة طيلة هذه القرون إلا على هذا المنهج.

فدعوتنا لا تفرق بين المسلمين لأنها دعوة تجمع الناس ولكن على الحق، وعلى منهاج الكتاب والسنة وفق منهج وفهم السلف الصالح. ثم إن لم نتبع هذا المنهج المميز اليوم للحق من الضلال، فماذا نتبع إذاً؟ ومن أين نأخذ الطريق والفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله في العقيدة والعبادة والسلوك؟

وكيف لنا بالتطبيق الواقعي لهذا المنهج؟ وكيف لا يكون حقاً وقد قامت به خلافة الإسلام؟ هل نأخذ إسلامنا من الفرق المخالفة لأهل السنة كالشيعة والمعتزلة والصوفية والخوارج وغيرهم؟

أم نأخذه من الفرق والجماعات الدعوية المتحزبة منها وغير المتحزبة؟

أم كيف الطريق؟ وأين المنهج؟ ومن نتبع؟

إن القائلين بهذا القول لم يدركوا حقاً حقيقة هذا المنهج، ولم يقفوا على أصوله من الكتاب والسنة، ولم يحكموا إلا أهوائهم وعقولهم، ولم يتحاكموا إلا إليها، وكان يجب عليهم أن يتحاكموا إلى الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح الذين كانوا المثال البشري الأرقى إيماناً وعلماً، واتباعاً وفهماً، وتطبيقاً وعملاً: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..الآية**﴾.

* * *

الفصل الخامس

معالم على طريق الدعوة والتمكين

الفصل الخامس

معالم على طريق الدعوة والتمكين

بعد هذه المسيرة التي أشرنا إليها، وبعد وضوح الطريق لنا في ملامح العودة إلى هدي الكتاب والسنة، وفق منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، وبيان موقف المخالفين، وبيان أخطائهم وبدعهم.

أقف سريعاً مع أهم المعالم والمهمات التي يجب أن تلتفت إليها الحركة والصحوة الإسلامية في مسيرتها الدعوية نحو إقامة خلافة هذا الدين، والتمكين له، ليكون منهج حياة كامل، وهذه المهمات والمعالم ربما دخل فيها أو تفرع منها معالم أخرى ولكني أحسب أنها من الأهمية بمكان.

* * *

أولاً: إحياء معالم الشريعة الإسلامية بالمفهوم السلفي الصحيح الشامل:

أقف هنا مع أول معلم ينبغي الالتفات إليه في طريق الدعوة الإسلامية، والوقوف معه بوضوح وصفاء، حتى يعلم الدعاة إلى الله أن الله لا يمكّن لمن تخلى عن منهج الهداية وسبيل المؤمنين، الذي مكنوا ونصروا به أول الأمر، وحتى يعلم الدعاة أيضاً أن لله تعالى سنن شرعية وكونية لا تحابي أحداً على حساب منهج الله وشريعته، بل تعمل وفق قدر الله وإرادته، ومن هنا ندرك أهمية هذا المعلم، ويتلخص الكلام فيه في النقاط التالية:

المحور الأول: المنهج السلفي ودوره في إحياء معالم الإسلام:

بعد الذي بيناه سابقاً من حقائق المنهج السلفي وموقف المخالفين له، نقف هنا مع طبيعة الدور الذي يجب في سبيل تمكين الله لهذا الدين من جديد، فمنذ قرون قريبة منا، تعرضت مسيرة الحياة الإسلامية إلى ضروب وأنواع من الخلل، ونالها الوهن والخور، وسيطر عليها الضعف والعجز، والركون الكبير إلى الترف واللهو، والركون

إلى متاع الحياة الدنيا والتجارات والأموال، كما أصابتها أدواء أخرى في جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغير ذلك، مما أودى بأمتنا إلى أودية من التيه والبعد عن منهج الله تعالى وشريعته، وتحكيم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، التي ظلت طيلة عشرة قرون تحكم الحياة الإسلامية في كل مناحي الحياة.

وكما قال أبو الحسن الندوي رحمه الله : "وكاد يحجب توحيد الإسلام النقي حُجُبٌ من الشرك والجهل والضلالة، وطرأت على النظام الديني بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح، وعن الدنيا وميزة المسلمين بين أمم الأرض وفضلهم إنما هو من هذا الدين الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم –، وميزة هذا الدين وإعجازه في صحته وحفظه، لأنه يمتاز بأنه وحي الله وشريعته ووضعه المعجز وشرعه الحكيم ﴿**تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ فإذا عملت فيه عقول الناس ودخلت فيه أعمال الناس وأهواؤهم لم يكن له على الأديان التي حرفها أهلها، والنظم التي نسجتها أيدي الناس إلا بمقدار ما فيه من الوحي المحفوظ والعلم المعصوم، ولم يكن ضامناً لسعادة الدنيا والآخرة، ولم يكن حقيقاً بأن تخضع له العقول وينجذب إليه الناس".(١)

[١] أسباب ضعف الأمة الإسلامية:

وحقيقة الأمر أن الوهن والضعف والتخلف الذي أصاب الأمة الإسلامية كانت له عدة أسباب وعوامل كان من أبرزها وأهمها فيما يبدوا لي في هذا التاريخ:

أولاً: سوء الفهم للإسلام وعقيدته وشريعته وأحكامه: وهذا الداء العضال دب في الأمة الإسلامية منذ العصور الأولى للإسلام، حيث كان من أول من وقع فيه الخوارج الذين خرجوا على خلافة سيدنا على رضي الله عنه وكفروه وادعوا بأنه حكم الرجال في دين الله، وقد ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما وأقام عليهم الحجة وبين لهم جهلهم الكبير بحقيقة الاستدلال وفهم الكتاب والسنة، ثم جاءت القدرية من بلاد العراق، وتبرأ منهم ابن عمر رضي الله عنهما، والشيعة الذين

---

(١) ماذا خسر العالم(١٢٤وما بعدها).

خالفوا كثيراً في حق الموالاة والنصرة والثأر الذي زعموا للحسين رضي الله عنه، ثم المعتزلة والمرجئة والجهمية والصوفية وغيرهم من هذه الفرق والمذاهب التي وقعت بسبب سوء الفهم فيما وقعت فيه من البدع والأهواء والضلالات.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : "وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله..إلخ".

وقد تأثر المسلمون كثيراً على طول الزمان بأفهام مغلوطة وقاصرة عن فهم حقائق الإسلام كما جاءت في الكتاب والسنة، ففهموا العقيدة على أنها لا تعني سوى القول باللسان، وأنه يكفيهم أن يقولوا لا إله إلا الله موقنة بها قلوبهم دون اعتبار لأي عمل في ظواهرهم يثبت انتمائهم لهذه الكلمة، وفهموا الإيمان بالقدر على أنه اتكال على عفوا الله وكرمه، وأنه ترك للسعي والتعمير في الأرض لأن الدنيا آخرتها فناء، والسعادة الأبدية إنما تكون حقيقة في دار الجزاء والنعيم، فلا داعي إذاً للعمل والتعمير والبناء، وفهموا أن السياسة الإسلامية الشرعية لا تعني سوى إدارة الحكم والسلطان فحسب، وفهموا أن قول الحق لا يعني إلا الخطابة والوعظ والتعليم العلم الشرعي، وتركوا الساسة والحكام والظالمين يفعلوا ما شاءوا دون حسيب أو رقيب يردعهم عن طغيانهم وظلمهم ، إلا قلة قليلة من الصادقين من أهل العلم والصدع بالحق وكما قال الدكتور محمد قطب: اختزلوا مفاهيم الإسلام الكبيرة في أشياء محدودة.

ومن هنا تركت الأمة ميادين الحياة كلها إلا قليلاً مما كانت عليه، وتكاسلت وتأخرت عن دورها الرائد في قيادة العالم كما كانت في القرون السالفة، في حين أن أوروبا وما جاورها بدأت في يقظة سريعة بعد طول سبات وجهل، بدأت في خطوات تسعى نحو الحضارة المادية والمدنية، تسابق الريح والعواصف.

فجاءت الكارثة لما تحولت عندها دفة القيادة من أهل العلم وأصحاب الوحي الرباني، الذين فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً، وملكوها قروناً وأحقاباً من الزمان، وبرعوا في كل ميادين الحياة والعلوم، تحولت إلى الرجل الغربي الذي لا يعرف من دنياه

سوى الطعام والشراب والشهوة، ولا شاغل له سوى المادة واللهث وراء الثروات، وما أودى بالأمة إلا سوء فهمها لحقيقة رسالتها التي ابتعثها الله تعالى من أجلها من إقامة العبودية لله تعالى وإعمار الأرض، فتركت العالم والعلم وانشغلت بالشهوات والكراسي والسلطان، واتكلت على سعة عفو الله ومغفرته.

ثانياً: التآمر الصليبي واليهودي ضد العالم الإسلامي: وهذا سيأتي معنا بيانه في المعلم التالي بإذن الله تعالى .

[٢] ضوابط إحياء معالم الإسلام:

ومن هنا فأي محاولة تقوم بها الدعوة الإسلامية اليوم، ستكون محاولة عسيرة ومهمة كبيرة، وما ذلك على الله بعزيز، فالمهمة إذاً أمام دعاة الإسلام تبدأ من هنا من إحياء معالم الشريعة الإسلام وفق الكتاب والسنة ومنهج وفهم سلف الأمة، وتربية الناس عليها من جديد صافية نقية بعيداً عن سوء الفهم لها، وعن مؤامرات التشكيك والنيل منها، وإن الواجب على دعاة الإسلام إعادة المفاهيم الحقيقية للإسلام في قلوب وأذهان المسلمين، **وضابط ذلك في أمرين**:

الأول: الفهم الصحيح للإسلام: لأن إعادة المفاهيم الصحيحة الحقيقية للإسلام تعني الشيء الكثير، إنها تعني أن يفهم الناس حقيقة كلمة التوحيد وما اشتملت عليه من معاني ومقتضيات ضبطها أهل العلم، وأنها قول واعتقاد وعمل، وأنها دنيا وأخرى، وأنها عبادات وأخلاق، وأنها معاملات وآداب، وأنها سياسات واقتصاد، وأنها ثقافة وعلوم.

وأنها تعني أن الحكم لله وحده لا للقوانين الغربية ولا الوضعية، وأنها تعني أن الحياة كلها لله وحده كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

وإنها تعني أن تثق الأمة بمنهج الله تعالى وصلاحيته الخالدة على مر الزمان والعصور، وأن منهج الله لن يصل إليه عقل بشري في رقيه ومثاليته وكماله، فتعمل

الأمة وتعمر وتبني وتصلح ما أفسدته في أيامها الأخيرة، وإنها تعني أن تفهم الأمة غايتها في هذه الحياة الدنيا وأنهم دعاة لله وحده وعبوديته وحده لا شريك له.

وإنها تعني إعادة دفة القيادة إلى رجالها وفرسانها، الذي ساسوا الدنيا بالعدل والحق، ونشروا فيها الأمن والسلام. كما ذكرت كتب التاريخ أن سعد ابن أبي وقاص أرسل ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي والحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وعلى تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه، "فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".[١]

كما أن الفهم الصحيح للإسلام يعني الوقوف أمام المذاهب والفرق التي دبت فيها البدع والأهواء وفي مقدمتها الشيعة والصوفية وأصحاب المدرسة العقلانية والخوارج، الذين ساهموا كثيراً في تشويه صورة الإسلام الصحيحة، كما كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم جميعاً.

والمنهج السلفي تصدى لكثير من انحرافاتهم وبدعهم التي شوهوا بها صورة الإسلام الصحيحة، وأزاح الشبهات التي تعلقوا بها، وهم مع ذلك لا يزالون يخالفون منهج الكتاب والسنة ومنهج السلف، بل ويتصدون لهم بالعداء والتنقيص، ولكن هيهات هيهات. فالله تعالى يأبى إلا أن يظهر الحق والدين، وإن طال الزمان وتشعبت الفتن كما أخبر بذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: "**لا يزال من**

(١) البداية والنهاية(ج٧/٤٠).

أمتي أمة قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من كذبهم ، ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك" وفي لفظ: "**ولا تزال عصابة**" وفي لفظ: "**ولا تزال طائفة**" وهو في الصحيحين.

كما أن الفهم الصحيح للإسلام يعني حصر منهج التلقي بعيداً عن هذه الفرق والمذاهب المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة، فالاستدلال الصحيح لا بد أن ينبني على منهج صحيح لا لبس فيه ولا غموض، ولا تشبيه فيه ولا تأويل يخالف ولا تعطيل، **وهذا الحصر في منهج التلقي يعني ثلاثة أمور ضرورية:**

الأول: تعظيم نصوص الوحيين الكتاب والسنة.

والثاني: الاستدلال بالأحاديث الصحيحة الثابتة في السنة النبوية.

والثالث: الفهم الصحيح لهذه النصوص، وهذه الثلاثة لا تراها مجتمعة إلا في منهج أهل السنة والجماعة المتبعين لها ، القائمين بما فيها، دون إفراط ولا تفريط، ولا جور ولا تأويل باطل، فهم أسعد الخلق بالأدلة الشرعية منهجاً وشريعة وأخلاقاً.

كما أن الفهم الصحيح للإسلام يقطع شوطاً طويلاً من التربية والإعداد لجيل النصر والتمكين، لأنه يقضي في سرعة كبيرة على كل خلل عقدي أو تعبدي أو سلوكي وأخلاقي، فالإنسان إنما تصدر أعماله على وفق ما لديه في نفسه وقلبه وعقله من اعتقادات وتصورات حول المنهج الإسلامي أو غيره، فإذا فهم الإسلام الفهم الصحيح الذي لا يعتريه النقص ولا البدع، ولا خالطته الأهواء ولا الانحرافات، فعندها لا نحتاج الجهد الكبير الذي يأخذه من يحتاج في تربيته إلى اقتلاع ما يحمل سلفاً من مقررات واعتقادات وتصورات تخالف المنهج الإسلامي الصحيح، وعندها تكون الأمة الإسلامية التي تريد التمكين والنصر، في حالة تؤهلها لهذا الوعد الرباني النبوي بإقامة الدين واستخلافهم لقيادة العالم من جديد، ونشر رسالة الإسلام والسلام والأمن والأمان، ولكنها السنن.

الثاني: شمولية الإسلام: فالعودة للإسلام تعني كل الإسلام ، فليس للإنسان أن يقف من الإسلام موقف الانتقاء والاختيار، فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، ويقبل ما يشاء ويرد ما يشاء، كلا، إنما الإسلام يؤخذ كله جملة واحدة بلا تبعيض ولا تفريق بين

أصوله وشرائعه وأحكامه، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ منكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وقال تعالى أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي في الإسلام جميعاً.

لأن الإسلام دين شامل كامل لكل مناحي الحياة البشرية، وفيه السعادة لمن سلك الطريق إليه، وأذعن له، وآمن به، فهو دين عقيدة وإيمان، ودين معاملات وأخلاق، ودين سياسات واقتصاد، ودين ثقافة وعلوم، ودين دنيا وأخرى، ليس فيه نقص في أي جوانبه، وليس في قصور في أحكامه وتشريعاته، وليس فيه تغليب لجانب على جانب. كلا إنه دين الشمولية الواسعة، والوسطية الهادية، والعقيدة الصحيحة، والعبادة االمزكية، والأخلاق الكاملة، فمن أراد السعادة استمسك بحبله، واعتصم بمنهاجه كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

لقد استطاعت المذاهب الغربية والعلمانية أن تؤثر على كثير من المسلمين بما تحمله من هدم صريح للدين الإسلامي لأصوله وثوابته، والعمل على فصل عقدية الإسلام وتشريعاته عن قيادة الحكم والسياسة والاقتصاد، وحصر هذا الدين في المساجد والصلاة والتلاوة والذكر فحسب، وحاولت إقناع الجماهير بعدم صلاحية الإسلام لهذا الزمان فتأثر الكثير ووقعوا في الشرَك الذي نصب للأمة كلها، وكان من آثار ذلك:

- عزل الدين عن القيادة والسلطان والحكم وإصدار التشريعات التي تحكم الأمة الإسلامية من مصادرها الأصلية الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وتم بالفعل إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً من تركيا، وتم قطع الصلة بها مع الإسلام والعالم الإسلامي، حتى قال العميل مصطفى كمال : "نحن لا نريد شرعاً فيه قالوا وقالوا ولكن نريد شرعاً فيه قلنا ونقول".(١)

(١) الإسلام والخلافة.على الخربوطلي(٢٨٥).

- كما تم إهمال العلوم الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة في كل مجالات التربية والثقافة وجعلها في الدرجة الدنيا في ذيل القائمة، مع الإعلاء من شأن الثقافات المخالفة لهذا المنهج الإسلامي وإجلال أصحابها والنفخ الدائم فيهم، وجعلهم في مثابة الفاتحين والمجددين .

- وفي الجانب الأخلاقي فتحوا الطريق أمام نشر الفساد وتدمير مقومات المجتمع المسلم ونشر ثقافة العري والتبرج والإباحية، من خلال المجون والسقوط ودور السينما والمسارح وغير ذلك من وسائل الإعلام المكتوب والمقروء والمسموع والمرئي على حد سواء. والعمل على اختلاق قضايا مزعومة للمرأة والضرب على هذا المنوال، إلى غير ذلك من الآثار والبلايا التي نزلت في جسد أمة الإسلام والتوحيد، والتي عملت مدرسة العلمانية وجنودها من خلالها على تخريب العقل المسلم، وتخريب العقيدة والأخلاق في قلوب الأمة، ولكن أنى لهم ذلك والله غالب على أمره مهما طال الزمان.(١)

فالواجب على دعاة الإسلام إحياء معالم الإسلام ومعانيها الصحيحة الشاملة في القلوب، بدأً من الجانب العقيدي، والتعبدي، والتشريعي، والأخلاقي وغيرها، حتى تنبني دعوة الإسلام من جديد في نفوس المسلمين، وحتى تتم الدعوة مسيرتها إلى حيث يشاء الله تعالى لها.

* * *

المحور الثاني: التصدي للتآمر الصليبي واليهودي ضد العالم الإسلامي:

[١] تآمر عالمي:

نؤكد بداية أن حديثنا هنا في هذا المحور لا يعني إطلاقاً أننا نلقي بالتبعات على الأعداء وتآمرهم على المنهج الإسلامي، لكننا نؤكد سنة من سنن الله الجارية وهي سنة التدافع بين الحق والباطل.

(١) للاستزادة حول موضوع العلمانية يراجع كتاب العلمانية للشيخ سفر الحوالي.

لقد بدأت الغارات التتارية والصليبية على جسد الأمة والعالم الإسلامي، وثارت العداوات وأشعلت الحرب نيرانها ضد الإسلام والمسلمين، حقداً وحسداً، وطمعاً في جمع خيرات العرب والمسلمين، فسخر الله لها رجالاً أعادوا للأمة عزتها ومجدها، ووقفوا بالمرصاد بصدق إيمانهم وعودتهم إلى شريعة الإسلام. فجاء سيف الدين قطز وتصدى بإيمانه وعزيمته فكان النصر والظفر، ووقف أمام المد الصليبي عماد الدين زنكي الذي تصدى لهم في معارك مختلفة.

ثم قاد الزمام من بعده نور الدين محمود زنكي الذي خط خطاً قوياً للدفاع عن بلاد الإسلام والمسلمين، فاتخذ قراراً بإجلاء الصليبيين من بلاد الشام والعمل على استعادة المسجد الأقصى من قبضتهم ولكنه جاءه الأجل، فأكمل المسيرة من بعده الفاتح المغوار صلاح الدين الأيوبي وقد أدرك المخاطر الكبيرة التي أحاطت بالعالم الإسلامي يومها، فقام بالتخطيط والاستعداد الإيماني والعسكري وبالصدق مع الله تعالى ، بالوقوف والزحف نحو الصليبيين وبيت المقدس، بعد أن أعلن عن الجهاد في سبيل الله تعالى فانضم العالم الإسلامي تحت لواءه ورايته، يطلب رضي الله والجنة، ورد عزة الإسلام والمسلمين، فكانت الغلبة والنصرة التي أعادت المسجد الأقصى وحررت بلاد الشام، وحصلت النكاية لأعداء الإسلام، كما تم دحر المذهب الشيعي، والتصدي له، مما أحدث به التراجع والانحصار.

ثم جاء من بعده نكوص آخر في الأمة الإسلامية، حتى العصر الحديث، فتآمر المد الصليبي بأحقاده الدفينة مع المد والفكر الصهيوني اليهودي، بالوقوف مرة أخرى أمام العالم الإسلامي وشن الحروب العسكرية عليه.

ولكنهم جاءوا مع ذلك بنوع جديد من الحروب الفكرية والثقافية التي غزوا بها جسد وعقول أمتنا، فدخلوا على ديار المسلمين بنوعين جديدين من الحروب وهما حرب الشهوات والشبهات. فأدخلوا دور السينما والمسارح في بلاد المسلمين، ونشروا الفساد الأخلاقي بنشر ثقافة العهر والإباحية، ونشر الأغاني الماجنة، والأفلام والمسلسلات الهابطة، ووظفوا جنوداً لهم ينشرون سموم المخدرات بين الشباب المسلم، لإضعاف أبدانهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الإسلام.

وجاؤوا بمن سموهم الأدباء والمفكرين الذي ساهموا بنشر هذه الثقافات المستغربة بين الأمة وشبابها.

وأما الشبهات فقد استخدموا نفس السلاح من المثقفين والكتاب في بث الشكوك حول الثوابت الشرعية، وأصول الدين، في كونه لا يصلح لهذا الزمان، ولا يصح أن يقود العالم اليوم من له حظ من التدين والاستقامة، فشككوا في صلاحية قيادة وأحكام الإسلام للسياسات والحكومات ، وإدارة فنون الاقتصاد وصورها.

وشككوا أيضاً في مصداقية العدل الإسلامي وأنه ظلم المرأة ولم يوفها حقها، فابتكروا قضايا ومشكلات للمرأة المسلمة ليس لها في الحق نصيب، ولكنه جهل الأمة بحقيقة دينها وشريعة ربها ونبيها – صلى الله عليه وسلم –، وزجوا بها في ميادين الرجال والأعمال والسياسة والقضاء وقالوا لقد حررنا هذه المرأة التي ظلمت، وجردوها من لباس حجابها وحياءها وقالوا قدمنا المرأة خطوة للأمام وصدقوا، لأنهم قدموها إلى الهاوية والرذيلة والفساد الأخلاقي والديني، ومن ثم سموا ذلك تقدماً وتحرراً، ليخدعوا السذج والرعاع، ومن لا خلاق لهم في الدين ولا علم ولا بصيرة. **ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بحروب متنوعة مختلفة يمكن تلخيصها في هذه النقاط** :

١– التواطؤ على إسقاط الخلافة الإسلامية وتقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة.

٢– إقامة الدول الإسلامية على أساس غربي وعلماني ونظم وضعية لا تعرف الإسلام.

٣– فتح الانتشار التغريبي والتنصيري أمام المستشرقين والمنصرين للتشكيك في الإسلام وعقيدته وشريعته ومن ثم زعزعة الإسلام في نفوس المسلمين.

٤– إقامة دولة إسرائيل المزعومة على أرض فلسطين والقدس ثم ما حولها من الدول وذلك من خلال نشر الماسونية السرية والروتاري والليونز لإحكام السيطرة على بلاد المسلمين.

٥- إحياء الثقافات التاريخية البائدة كالفرعونية والإغريقية والرومانية والعمل على تمجيدها والافتخار بتراثها وحضارتها، مع تشويه الثقافة الإسلامية ورموزها على طول التاريخ .[1]هذه أهم وأبرز النكبات التي أفرزها التآمر الصليبي والصهيوني على بلاد الإسلام والتوحيد، لإحكام السيطرة عليها، ومن ثم العبث بمقدراته وثرواته ونفطه وخيراته.

[٢] وخذوا حذركم:

فلا بد إذاً على دعاة الإسلام أن يأخذوا حذرهم من هؤلاء الأعداء والمتربصين، الذين يحاربون الله ورسله في كل زمان ومكان، ويقفون لأوليائه بالمرصاد والكيد والتخذيل، ولكن الله من ورائهم محيط، كما قال تعالى يبين لنا ذلك: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً ، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**﴾ [الطارق:١٥-١٧] .

وقد نهانا الله تعالى عن موالاة هؤلاء ومتابعتهم والسير على طريقهم ، بل وحذرنا أشد التحذير كما قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ، إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ [الممتحنة:١،٢]، وقال تعالى لنبيه ورسوله: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ**﴾ [المائدة:٤٩].

---

(١) العالم الإسلامي والمكائد الدولية.فتحي يكن، وانظر الهوية أو الهاوية للمقدم.

وقال تعالى محذراً من موالاة أهل الكفر والشرك من أمة اليهود والنصارى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

فالحذر مسألة شرعية قصرت الأمة فيها، ولم تلتفت إلى أمر الله تعالى، فصارت خلف ركب التقليد الأعمي لأهل الكفر والشرك والضلال، فصارت إلى ما هي عليه اليوم من الضعف والمهانة، وصارت خادمة للغرب تطعمه وتسقيه من ماءها ونفطها، ثم يرد ذلك عليها بكبر واستعلاء وهو يقولوا لها نحن من نعطيكم ونطعمكم.

إنها المذلة التي كتبها الله تعالى بسننه الجارية يوم أن تخلت الأمة عن هدي ربها وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: **"يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها، قلنا: يا رسول الله أمن قلة منا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهة الموت"**.

و يمكننا هنا أن نشير إلى بعض من أساليب الحذر والتصدي لكيد الكافرين:

١- تحقيق عقيدة الولاء والبراء من الكافرين عدم موالاتهم والتقرب إليهم كما قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢،٥١].

وكما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ

وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة:٤،٥]، وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠٠،١٠١].

٢- تحقيق الإيمان الصحيح الصادق ، وتحسين الصلة بالله تعالى ومنهجه كما قال تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة١٥٣].

٣- الصبر على كيدهم ومكرهم لنا لأن الله وعدنا بالنصر وعدم إلحاق الأذى بأهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر:١٣].

٤- تحقيق الخوف والخشية من الله وحده دون الخوف والخشية من مكر الكافرين والمشركين كما قال سبحانه:﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٥-١٧٨].

٥- قتال الكافرين ومجاهدتهم في سبيل الله تعالى في أرض المعركة، إذا التقى الفريقان، ودقت الحرب طبولها، وأشعلت نيرانها كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ منكُمْ عَن دينه فَسَوْفَ يَأْتي اللّهُ بقَوْمٍ يُحبُّهُمْ وَيُحبُّونَهُ أَذلَّة عَلَى الْمُؤْمنينَ أَعزَّة عَلَى الْكَافرينَ يُجَاهدُونَ في سَبيلِ اللّه وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئم ذَلكَ فَضْلُ اللّه يُؤْتيه مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسعٌ عَليمٌ﴾ [المائدة:٥٤]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية.

٦- الإعداد الشامل لمواجهة أعداء الله تعالى ورسوله وبما تملك الأمة من قدرات وإمكانيات عقدية وأخلاقية، وثقافية وعلمية، واقتصادية وسياسية، وعلى رأسها القوة الإيمانية والعسكرية كما قال تعالى: **﴿وَأَعدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة وَمن رِّبَاط الْخَيْلِ تُرْهبُونَ به عَدْوَّ اللّه وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرينَ من دُونهمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفقُواْ من شَيْءٍ في سَبيلِ اللّه يُوَفَّ إلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾** [الأنفال:٦٠]. وهذا الإعداد ولا ريب إعداد واسع كبير، يدخل فيه كما أشرت الإعداد الإيماني العقيدي، وهذا أولها وأجلها على الإطلاق، إذ ما انتصرت الأمة الإسلامية يوماً من تاريخها الطويل إلا به، وما استعانت على أعداء الله إلا به، وما هزت وزلزلت عروش الظالمين إلا به، إنه سلاح الإيمان بالله تعالى والثقة في نصره وحده.

كما يدخل فيه الإعداد العسكري وهذا كذلك من أجل صور الإعداد، التي دعانا الله إليها بقوله "**من قوة**"، وهذا يحتاج إلى فتح أبواب الجهاد أمام الأمة الإسلامية، وتدريبها على منازلة الأعداء، وجهاد الكافرين، وبناء النفوس والأبدان على التضحية في سبيل الله تعالى بأجل ما تملك من النفوس والأرواح، وتهيئة الشباب المسلم لنشر دعوة الإسلام والسلام بين العالمين، وتحميسهم على الجهاد والغزو لأن ذلك علامة براءة من النفاق، وتهيئة لوعد الله بالنصر والتمكين لهذه الأمة.

كما يدخل فيه البناء الأخلاقي الكبير الذي هو من أجل أهداف رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم -، والبناء الأخلاقي إنما هو بناء للأمم على الفضائل، وتربية على السمو والارتفاع على دنايا النفوس وسفسافها: "**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**".

كما يدخل فيه أيضاً البناء الاقتصادي الصحيح، القائم على تشريع الله تعالى في كتابه وسنة رسوله، بعيداً عن كل صور التعامل المنهي عنها من الغش والظلم والتعامل الربوي، والسرقة والاحتيال وغيرها.

كما يدخل فيه البناء الثقافي العلمي، فإن الأمة التي لا علم لها مبني على كتاب وسنة أمة محكوم عليها بالفشل، ومحكوم عليها بالهزيمة، ومحكوم عليها بالذل لأعدائها ولا ريب، فإن الله تعالى تعبدنا بطلب العلم النافع، والاستزادة منه كما قال تعالى: "**وقل رب زدني علماً**"، ورفع مكانة أهل العلم وطلبته: "**والذين أوتوا العلم درجات**" والمعركة اليوم بين الأمة وأعدائها دائرة في فلك العلوم بشكل كبير وواسع، ويوم أن فقهت الأمة غايتها سادت بهذا العلم على كل الأمم، وارتفعت بأخلاقها، في حين أن أوربا كانت غارقة في الظلمات والتيه والضلال.

٧- توحيد الأمة على منهج الله تعالى والاعتصام به وبحبله القرآن مع تحقيق معاني الأخوة الإيمانية كما قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّه جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّه عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَته إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَة مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاته لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿**وَجَاهدُوا في اللَّه حَقَّ جهَاده هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ منْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبيكُمْ إِبْرَاهيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلمينَ من قَبْلُ وَفي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصمُوا باللَّه هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنعْمَ الْمَوْلَى وَنعْمَ النَّصيرُ**﴾ [الحج:٧٨].

ولا ريب أن القرآن والسنة قد بينا لنا كثيراً من أساليب الحذر والحيطة من مكر الكافرين وخداعهم وعدم إلقاء السمع والطاعة لهم حتى تعلم الأمة أن الثقة في الله ومنهجه ودينه طريق للعزة والنصر والتمكين كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوَاْ إِن تُطيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذينَ أُوتُواْ الْكتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانكُمْ كَافرِينَ**﴾ [آل عمران١٠٠].

* * *

المحور الثالث: تأهيل الأمة للقيادة والخلافة الإسلامية الراشدة:

تأهيل الأمة الإسلامية لمرحلة القيادة والخلافة الإسلامية، أمر واجب على الأمة ودعاتها وحملة العلم فيها، لأن الخلافة أمر واقع لا محالة بموعود الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن في الوقت الذي يشاءه الله تعالى، والذي يعلم فيه بعلمه أن الأمة تستحق أن تسود العالم من جديد بمنهج الله وشريعته.

كما جاء عند الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه الله، قال : كنا جلوساً في المسجد فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الأمراء، فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته. فجلس أبو ثعلبة. فقال حذيفة : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت**". قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه. فقلت له: إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين – يعني عمر - بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز فَسُرَّ به وأعجبه(١).

وللحديث شاهد عن سَفِينَةُ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "**الْخلافَةُ فِي أُمّتِي ثَلاَثُونَ سَنَةً، ثُمّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلكَ. ثُمّ قَالَ سَفِينَةُ :امْسكْ عَلَيْكَ خلافَةَ أَبِي بَكْرٍ، ثُمّ قَالَ: وَخلاَفةَ عُمَرَ وَخلاَفَةَ عُثْمانَ، ثُمّ قَالَ لِي: امسكْ خلاَفَةَ عَلِيّ قال: فَوَجَدْنَاهَا ثَلاَثِينَ سَنَة**" رواه أحمد وحسنه الأرناؤوط.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: ذهبت النبوة فكانت الخلافة على منهاج النبوة. وصححه الأرناؤوط. والذي عليه كثير من أهل العلم أن الملك الجبري هي هذه الحقبة الزمنية التي تمر الأمة الإسلامية بها الآن، وأن الله تعالى سيهيء للأمة الإسلامية طريقاً للعودة لهذه الخلافة الراشدة على منهاج النبوة الأولى.

والخلافة الإسلامية تعني: التمكين للمؤمنين المتبعين للكتاب والسنة، والسائرين على طريق الصحابة والسلف الصالح من بعدهم، التمكين لهم بأن يقيموا العقائد والشعائر والشرائع التي أمر الله تعالى بها ورسوله في جميع مجالات الحياة البشرية. والتمكين لهم بالإعلان عن عبوديتهم لله وحده لا شريك له في حكمه ولا في أمره، في

---

(١) ورواه أبوداود الطيالسي والبيهقي في منهاج النبوة والطبري وحسنةالأرناؤوط وصححه الألباني.

حرية كاملة دون خوف من الطغاة أو الظالمين، أو وجل من أعداء الله المتربصين والمنافقين.

والتمكين لهم أن يملكوا زمام قيادة العالم من جديد كما كانوا في القرون الماضية، وأن يفتحوا قلوب العالمين بنور هذا الدين الحق، ويفتحوا كنوز الأرض وخيراتها بالجهاد في سبيله وحده وإعلاء كلمة دينه. والتمكين لهم بأن يحكموا الناس بشريعة الله، وأن يرفعوا ظلم الظالمين، وفساد المفسدين، وأن يقيموا ميزان الحق والعدل بين الناس بما أنزل الله تعالى، وأن يرفعوا عنهم الذل والمهانة التي طالما عاشوا بها سنيناً طويلة، يذلون فيها لأعداء الله من اليهود والنصاري والمنافقين، ويحكموا قوانين الظلم والجور بين العالمين.

إن الخلافة تعني الكثير والكثير من تحرير البشرية كلها من قبضة الطغاة والمنافقين، الذين يحاربون شريعة الله ومنهجه، وتحريرها من أن تذل لغير خالقها وموجدها، وأن تستمد أحكامها وشرائعها إلا من منهاج ربها وشريعته الإسلام.

وهذه الخلافة قادمة لا محالة، ولكنها تأتي ببذل الجهود، وإعداد العدة ، وتطهير القلوب، وتزكية النفوس، واستعلاء الإيمان في قلوب أصحابه، إنها قادمة بإذن الله ولكن بالسنن التي تعمل في الكون، وليس بترك الدعوة والتخاذل عن نصرة الإسلام والمستضعفين في الأرض، فمن الواجب أن تتأهل أمة الإسلام لهذه الخلافة الراشدة التي طال انتظارها لها كما قال القائل: (١)

قالوا: السعادة في السكون ... وفي الخمول وفي الخمود
في العيش بين الأهل لا ... عيش المهاجر والطريد
في المشي خلف الركب في ... دعة وفي خطو وئيد
في أن تقول كما يقال ... فلا اعتراض ولا ردود
في أن تسير مع القطيع ... وأن تقاد ولا تقود

---

(١) من كلمات د.يوسف القرضاوي.

في أن تصـــــيح لكـــــل وال: عـــــاش عهـــــدكم المجيـــــد
قلـــت: الحيـــاة هـــي التحـــرك لا الســـــكون ولا الهمـــــود
وهـــي الجهـــاد، وهـــل يجـــا هـــد مـــن تعلـــق بـــالقعود؟
وهـــــي التلـــــذذ بالمتاعـــــب لا التلـــــــذذ بـــــــالرقود
هـــي أن تـــذود عـــن الحيـــاض وأي حـــــــر لا يـــــــذود؟
هـــي أن تحـــس بـــأن كـــأس الـــذل مـــن مـــاء صـــديد
هـــــي أن تعـــــيش خليفـــــة في الأرض شـــأنك أن تســـود
وتقـــول: لا، ونعـــم، إذا مـــا شـــــئت في بصـــــر حديـــــد

* * *

ثانياً: معالم تأهيل الأمة الإسلامية لمرحلة القيادة والخلافة الإسلامية:

وهنا نضع بعض المعالم والإشارت التي نحسب أنها تؤهل الأمة الإسلامية للسير حثيثاً نحو إقامة حكم الله في الأرض، والتمكين لدينه.

أولاً: تكوين الجماعة المؤمنة وإعدادها لمواجهة الأحداث:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم فأقام دولة الإسلام بعد صبر وثبات، وبعد أن عمل على تكوين الجماعة المؤمنة، التي تحمل هذا المنهج الرباني للعالمين، وأعدها إعداداً كبيراً وبديعاً لمواجهة الأحداث والتقلبات التي أقامها المعسكر الجاهلي ضد الإسلام ودعوته الراشدة، وهذا هو الواجب على الأمة الإسلامية اليوم، وفي ظل هذه المتغيرات الكبيرة.

وقد تصدى الغرب الصليبي، والعقل الصهيوني اليهودي، والمعسكر الشرقي والشيوعي، لمواجهة دعوة الإسلام المتمثلة في هذه الصحوة الإسلامية ودعاتها وطلبة العلم فيها وغيرهم، هذه الدعوة التي أذن الله لها أن تتناثر في ربوع العالم كله شرقاً وغرباً، بل وفي العالم الغربي والأوربي والشرقي والشيوعي.

وهذا من وعد الله تعالى بأن يظهر الإسلام على الدين كله، ولن تستطيع أي قوة في الأرض أن تقف له، أو أن تمنعه من الزحف والتقدم إلى قلوب الناس مهما كان شأنها وسلطانها كما أخبر بذلك في كتابه العزيز: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة٣٣]، وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ [الفتح٢٨].

ومن هنا وجب على الدعاة إلى الله والساعين لوعد الله تعالى بإيجاد وتكوين هذه الجماعة التي تقود الناس وتسوسهم بهذا الدين العظيم، **وهذا التكوين للجماعة المؤمنة يعني الشيء الكثير:**

١ - **إنه يعني التربية على العقيدة الصحيحة، التي تستمد من كتاب الله وسنة رسوله وصحابته رضي الله عنهم**، هذه العقيدة التي غرست منابع الإيمان في قلوبهم، وجعلت من الإيمان زاداً لهم، فاستعلوا بعقيدتهم على دنايا النفوس وشهواتها، واستعلوا بها على دنايا الدنيا وزخارفها الفانية، واستعلوا بها على طواغيت الظلم وأساطين الفساد، واستعلوا بها على المناصب والسلطان، فكانوا هم الأعلون بإيمانهم، والأعلون بعقيدتهم كما قال تعالى: ﴿**فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد٣٥]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران١٣٩]، وقال أبو الحسن الندوي رحمه الله: "بهذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته، بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة.

عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً وكأنما كان ميتاً لا يتحرك

فعاد حياً يملي على العالم إرادته وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم: **﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** [الأنعام:١٢٢].

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العليا، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته[(١)]، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحربية في نطاق محلِّي ضيق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم، ولم يحرز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة، إذ به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شيء إلا حصده، وينزل كصاعقة على الروم والفرس ويترك ذكراً خالداً في التاريخ.

وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقي عليها الوداع ويقول: سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده.

وهذا عمرو بن العاص كان يُعد من عقلاء قريش وترسله في سفارتها إلى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة. وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن، وينيط باسمه فتح العراق وإيران.

---

(١) رحم الله أبا الحسن لو قدم الإيمان واليقين في قلب عمر لكان خيراً وأولى من عبقريته أولاً.

وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبذان في إحدى قرى فارس لم يـزل يتنقـل مـن رق إلى رق ومن قسوة إلى قسوة إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصـمة الإمبراطوريـة الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها، وأعجب من ذلك أن هـذه الوظيفـة لا تغـير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الأثقال.

وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقبه فيـه أمـير المـؤمنين عمـر بالسيد، وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة يقول: لو كان حيـاً لاستخلفته. وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة وفيه مثل جعفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبي بكر وعمـر. وهـذا أبـو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب، تهب علـيهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزُّهاد المعدودين والعلماء الراسخين.

وهذا علي بن أبي طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابـت وعبـد الله بن عباس قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم مـن علمـاء العـالم يتفجر العلم من جوانبهم وتنطق الحكمة على لسانهم ، أبّـر النـاس قلوبـاً وأعمقهـم علماً وأقلهم تكلفاً، يتكلمون فينصت الزمن ويخطبون فيسجل قلم التاريخ".[(١)]

٢- كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني الاهتمام بالعلم الشـرعي والنـافع في جميـع مجالات الحياة، وإحياءه، والحث عليه، والازدياد منه، فأمة لا تعرف العلم أمـة جاهلـة، وأمة لا تتعلم أمة محكوم عليها بالفناء والنسيان، وأمة لا تعرف أمر الله وأمر رسـوله، أمة لا تنصر ولا تمكن ولا تكون لها سيادة ولا قيادة.

إن أول آيات تنزلت في رسالة هذه الدعوة كانت تأمر بالقراءة والعلـم ، وتحـث على كشف مغاليق العلوم التي أودعها الله في الإنسان والكون كما قال تعالى: ﴿**اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق:١-٥]، ولا تخفى علينا مكانة العلم والعلماء عند الله تعالى.

(١) ماذا خسر العالم(١٠٢وما بعدها).

فالواجب أن تعني الأمة الإسلامية على القيام بتعليم أبناءها العلم الشرعي المتعلق بالكتاب والسنة، والعمل على إحياء هذه العلوم بين طلبة العلم تعلمًا وتعليمًا، وشرحًا وتفهيمًا، وحفظًا وإتقانًا، حتى تسري فيها روح العلم بنور الوحي المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، فتحيى به القلوب الموات، وتسعد النفوس الحزينة، ويعود لنا أحفاد الصحابة والتابعين، وأحفاد عمر وابن عباس وابن ومسعود وخالد وأبو عبيدة رضي الله عنهم أجمعين، **ونعني بعلم الكتاب والسنة ما يلي:**

أما علم الكتاب: فيتمثل في طلب العلوم القرآنية التي تدلنا على معاني القرآن، وعلى ناسخه ومنسوخه، وعلى المحكم والمتشابه، وعلى معرفة أسباب نزول القرآن، ونوجزها فيما يلي:

١- علم التجويد وأدب التلاوة خاصة في الجانب العملي.

٢- علم أسباب النزول وأمكنة النزول لفهم وقائع وأسباب نزول القرآن.

٣- علم الناسخ والمنسوخ لِيُفهم الحكم الناسخ والمنسوخ عند العمل به.

٤- علم الرسم العثماني.

٥- علم القراءات المتواترة وغيرها.

٦- علم غريب القرآن.

٧- علم التفسير بأقسامه وهو من أجل علوم القرآن لفهم مراد الله تعالى.

٨- علم ترجمة القرآن.

٩- علم الفهارس القرآنية. هذه أهم علوم الكتاب المطلوب العودة إليها تعلمًا وتعليمًا، وحفظًا وإتقانًا باختصار.

أما علم السنة: أما بالنسبة إلى علم السنة النبوية فهو لا يقل أهمية عن الحديث عن القرآن وعلومه، لأن السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، ولأنها أيضًا هي المفسرة للقرآن والمبينة لمجمله، ولمبهمه، ولخاصه ولعامه، ولأن كتاب الله لا يفهم

غالبًا إلا من خلالها بالتبيين الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه بعض علوم السنة الهامة، والتي يحتاج إليها طالب العلم والباحث عن المعرفة الصحيحة:

١- علم الجرح والتعديل.

٢- علم معرفة الصحابة وأحوالهم.

٣- علم تاريخ الرواة وحياتهم.

٤- علم معرفة الأسماء والألقاب والكنى.

٥- علم مصطلح الحديث ومعرفة الصحيح والحسن والضعيف، وكذا معرفة المتواتر والآحاد، والموضوع وأقسامه وغيرها.

٦- علم الناسخ والمنسوخ في السنة وما يترتب عليها من أحكام شرعية.

هذه أهم العلوم المتعلقة بالكتاب والسنة ولا مجال هنا للكلام عن كل العلوم، ولكن ينبغي الاهتمام أولا بهذين الأصلين ثم بالعلوم الموصلة إليهما والمستنبطة منهما وعلوم أصول الفقه والاستدلال، وعلوم اللغة والسير والتاريخ والفرق والمذاهب، وغيرها كثير، إلى جانب العلوم الأخرى كالطب والحساب والفلك والكيمياء وغيرها أيضاً، فمعرفة هذه العلوم تبني عقول الأمة بالمعرفة الصحيحة بربها ودينه وشريعته، وتبني المعرفة الصحيحة بالكون وخالقه، فلا ينبغي الإهمال والإعراض عن هذا النور الرباني الذي قال الله فيه: "**وقل رب زدني علماً**" .

٣- كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني العمل بما أوجبه الله تعالى ورسوله في الكتاب والسنة ، وأن تحول الجماعة المؤمنة هذا العلم ، إلى واقع عملي في كل شؤون حياتها ، وأن يكون العمل بهما شعار المؤمنين، ومنهاج حياتهم، ودستور أخلاقهم.

إن على أفراد أمتنا أن تأخذ بجد وعزيمة على أنفسها أحكام القرآن، وكذلك أحكام السنة موضع العمل الحياتي الواقعي، فلا تكتفي بإلقاء الخطب والمحاضرات، ونشر الكتب الإسلامية والأشرطة والمجلات الدعوية.

بل لابد لهذا الدين من واقع يسري فيه، وحياة يعمل فيها، كما تصوره وكانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقد تمثلوا الكتاب والسنة واقعًا عمليًا، ومنهاجًا هاديًا، وأخلاقًا كريمة، وآدابًا كاملة، وحبًا صادقًا، والتاريخ الإسلامي حافل بذلك المداد النوراني العظيم، قال سبحانه وتعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب:٢٣]. وهكذا كان السلف والتابعون من بعدهم عاملين بالكتاب والسنة متحاكمين إليهما، آخذين بأحكامهما حتى سعدوا دنيا وأخرى رضي الله عنهم أجمعين.

إن اتباعنا للقرآن ملزم لنا عملاً أن نتدبره حينما نتلوه ، وأن نتفهم آياته ومعانيه، كما قال سبحانه: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ [ص:٢٩]. وملزم لنا العمل به في حياتنا كلها سواء في مأكلنا ومشربنا، وفي ملبسنا وفي مدخلنا ومخرجنا، وفي أفراحنا وأتراحنا، وفي الرخاء والشدة، وفي السلم والحرب، وفي كل مناحي حياتنا وضروبها، هكذا نتمثله واقعًا كما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – قرآنًا يمشي على الأرض.

وكان أيضًا النموذج العملي والقدوة الهادية في العمل بالسنة، في حياته وحتى مماته، وكذا نحن ملزمون بذلك كما قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب:٢١].

بهداه أيها الداع اقتده   واتبع الأخرى وأخلص في العمل

لقد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام السنة الكاملة في جميع شؤوننا، في مأكلنا ومشربنا، وفي سفرنا وإقامتنا، وفي سلمنا وحربنا، وفي شدتنا ويسرنا، وفي نومنا ويقظتنا، علمنا كل ذلك وأكثر من ذلك ومن شاء العلم والعمل فليرجع إلى كتب السنة النبوية من الصحاح والمسانيد والسنن، فإن فيها الخير الكثير، وأيسر الكتب الدالة على هديه وفضله كتاب زاد المعاد لابن القيم، والأذكار ورياض الصالحين للإمام النووي رحمهما الله تعالى.

والخلاصة: أن الواجب علينا أن نجعل العمل بالكتاب والسنة شعارنا في كل أمورنا وأحوالنا.

٤ – كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني أن تقوم بواجبها نحو ربها ودينها بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإن الدعوة إلى الكتاب والسنة قولاً وعملاً، فهمًا وتطبيقًا، ليست من ضروب التطوع، كلا بل هي فرض على كل مسلم مكلف كل بحسبه؛ لأنها دعوة إلى الله ورسوله، وهي دعوة إلى الاعتصام بالإسلام كله في عقائده وعباداته، وفي سلوكه وأخلاقه، وفي حياته ومعاملاته، فهي لازمة على المسلم.

وهي كذلك جزء كبير من حمله رسالة التوحيد والهدي إلى جميع الخلق كل على قدر استطاعته وفي حدود إمكانياته المتاحة، وعلى قدر فهمه وعلمه، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف:١٠٨].

فأتباع النبي صلى الله عليه وسلم هم المؤمنون به، يدعون إلى الله على بصيرة، أي على علم ويقين، كما كان رسول الله يدعو إلى الله على بصيرة ويقين، ومن ذلك أن من اللوازم الضرورية لإيمان المسلم أن يدعو إلى الله، فإذا تخلف عن الدعوة، أو قصر في واجبها دل ذلك على وجود نقص وخلل في إيمانه يجب عليه تداركه بالقيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى.

إذًا الأمة الإسلامية بمجموع أفرادها شركاء في هذه الوظيفة الربانية مطالبون بها، لأنها تقوم بواجبها الذي فرضه الله عليها وأمرها به في نشر المبادئ السامية، والقيم الأخلاقية، والمفاهيم الإسلامية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع كونها متمسكة بهذه المبادئ والأصول، وتلك الأخلاق والفضائل قال الله عز وجل: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ [آل عمران:١١٠].

وإن من عجيب الأمر أن ترى أتباع الإلحاد والزندقة والعلمنة، وكذلك التنصير لهم دعاة يتحركون في كل أرجاء الأرض، من مبشرين ومنصرين وغيرهم، ويحملون هم ذلك مع أنهم على الباطل. أما أهل الحق والتوحيد فهم في

غياهب الغفلات، وفي أودية الشهوات، لا يحملون هم هذا الدين، ولا هم الدعوة إليه، إلا القلة القليلة المؤمنة، التي نحسبها على الخير، ولا نزكيها على الله تعالى، فمن هنا ينبغي أن نعلم أننا مكلفون بهذا الأمر، وهذه الأمانة، فمن الواجب علينا نحن أمة الإسلام، أن نتحرك، وأن ندعو إلى الحق الذي نحمله.

إن العمل للإسلام أصبح اليوم ضرورة ملحة لمواجهة التحديات القائمة، والمؤامرة الكبيرة التي تحاك للنيل من الإسلام وأهله، وإن مسئولية العمل للإسلام واجب تكليفي شرعي، تعد مسئولية فردية، فمن لم يحمل هم المسلمين فليس منهم، كما هي واجب جماعي من حيث الحركة التنفيذية، إنه لا ينبغي على المسلم أن يعيش لشهوات نفسه وملذاتها فقط، بل إنه خلق ليقيم رسالة الله في أرضه وعبادته، ويقيم خلافته الراشدة، فعلى المسلم أن يعيش للإسلام وللإيمان، لا أن يعيش للدنيا والشهوات، بل يشارك في حمل هذا العبء الثقيل ليكون أهلاً لرضوان الله في الآخرة وليكون أهلاً لكرامته.

٥- كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني الاستجابة لله والرسول وحسن السمع والطاعة، فلا مخالفة ولا معارضة ولا مجادلة لحكم الله والرسول، لأن هذه علامة الإيمان الصادق في القلوب كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [الأنفال:٢٤]. وقال تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ**﴾ الشورى:٤٧]، **وقال تعالى أيضاً**: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال:١].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾ [الأنفال:٢٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [النور:٥١].

٦- كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني أن يقوم الشباب المسلم بدورهم الكبير في نصرة هذا الدين، والتمكين له وذلك من خلال التربية والإعداد الصحيح لهؤلاء الشباب. لقد

أعلى الإسلام من مكانة الشباب، وأكثر من الاهتمام بهم وبتربيتهم على العقيدة الصحيحة، والأخلاق الطيبة، واطلب العلم النافع، والعمل لخدمة ونصرة الإسلام، والقرآن فيه من ذكر الشباب المؤمن والثابت على مبادئه ودعوته الكثير، فنبي الله يوسف بن يعقوب – عليهما السلام – مثال جليل، حتى أنه كان يدعوا السجناء معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وشباب أصحاب الكهف الذين وصفهم الله تعالى بأنهم فتية آمنوا بربهم، وغلام أصحاب الأخدود وقصته المعروفة.

أما السيرة والسنة ففيهما الشيء الكثير من أمثال عبد الله بن عباس وابن عمر ومصعب بن عمير وغيرهم كثير، والنصوص في هذا كثيرة بحمد الله. ولكن المتأمل اليوم إلى واقع الشباب المسلم يرى أن شباب الإسلام اليوم يهيمون في واد من المشكلات التي تشغل تفكيره وتفسده و تؤخره إلى مستوى راجعي لا يليق بشاب مسلم، و هذا حال غالب الشباب اليوم ليس جلهم، **كما قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى**(١): "**و الشباب اليوم ثلاثة أقسام:**

أما القسم الأول من الشباب: فشباب منحرف في عقيدته متهور في سلوكه ، مغرور بنفسه، منغمر في رذائله، لا يقبل الحق من غيره ولا يمتنع عن باطل فى نفسه، أناني في تصرفه، كأنما خلق للدنيا وخلقت الدنيا له وحده. شباب عنيد لا يلين للحق ولا يقلع عن الباطل.

شباب لا يبالي بما أضاع من حقوق الله ، ولا من حقوق الآدميين. شباب فوضوي فاقد الاتزان في تفكيره، وفاقد الاتزان في سلوكه وفي جميع تصرفاته، شباب معجب برأيه كأنما يجري الحق على لسانه، فهو عند نفسه معصوم من الزلل، أما غيره فمعرض للخطأ والزلل مادام مخالفاً لما يراه.

شباب ناكب عن الصراط المستقيم في دينه، وناكب عن التقاليد الاجتماعية في سلوكه، ولكنه قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فهو شؤم على نفسه، ونكبة

---

(١) رسالة مشكلات الشباب.

على مجتمعه، يجر أمته إلى أسفل السافلين ويحول بينها وبين العزة والكرامة، جرثومة وبيئة قاتلة صعبة العلاج، إلا أن يشاء الله، والله على كل شيء قدير.

وأما القسم الثاني من الشباب: شباب حائر متردد بين مفترق الطرق عرف الحق وأطمأن به وعاش في مجتمع محافظ، إلا أنه انفتحت عليه أبواب الشر من كل جانب. تشكيك في العقيدة، وانحراف في السلوك، وفساد في العمل وخروج عن المعروف من التقاليد، وتيارات من الباطل متنوعة، فهو في دوامة فكرية ونفسية.

وقف أمام هذه التيارات حيران لا يدري هل الحق فيما حدث وجد من هذه الأفكار والمبادئ والمسالك، أو فيما كان عليه سلفه الماضي ومجتمعه المحافظ، فصار متردداً قلقاً يرجح هذا تارة وذاك أخرى.

فهذا القسم من الشباب سلبي في حياته ، يحتاج إلى جاذب قوي يقوده إلى حظيرة الحق وطريق الخير، وما أيسر ذلك إذا هيأ الله له داعيه خير ذا حكمة وعلم ونيه حسنة. وهذا القسم يكثر في شباب نالوا بعضاً من الثقافة الإسلامية لكنهم درسوا كثيراً من العلوم الكونية الأخرى التي تعارض الدين في الواقع أو في ظنهم فوقفوا حيارى أمام الثقافتين ويمكنهم التخلص من هذه الحيرة بالتركيز على الثقافة الإسلامية وتلقيها من منبعها الأصلي الكتاب والسنة على أيدي العلماء المخلصين وما ذلك عليهم بعزيز".(١)

" **أما القسم الثالث فهم الشباب المستقيم**: شباب مؤمن بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فهو مؤمن بدينه إيمان محب له، ومقتنع به، ومغتبط به، يرى الظفر به غنيمة، والحرمان منه خسراناً مبيناً.

شباب يعبد الله مخلصاً له الدين وحده لا شريك له. شباب يتبع رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم في قوله وعمله، فعلا وتركاً، لأنه يؤمن بأنه رسول الله وأنه الإمام المتبوع. شباب يقيم الصلاة على الوجه الأكمل بقدر ما يستطيع، لأنه يؤمن بما

(١) المصدر السابق.

في الصلاة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية، الفردية والاجتماعية، وما يترتب علي إضاعتها عواقب مخيمة للأفراد والشعوب.

شباب يؤتي الزكاة إلى مستحقيها كاملة من غير نقص، لأنه يؤمن بما فيها من سد حاجة الإسلام والمسلمين مما اقتضى أن تكون به أحد أركان الإسلام الخمسة.

شباب يصوم شهر رمضان فيمتنع عن شهواته ولذاته إن صيفاً وإن شتاءً؛ لأنه يؤمن بأن ذلك في مرضاة الله فيقدم ما يرضاه ربه على ما تهواه نفسه. شباب يؤدي فريضة الحج إلى بيت الله الحرام؛ لأنه يحب الله فيحب بيته والوصول إلى أماكن رحمته ومغفرته، ومشاركة إخوانه المسلمين القادمين إلى تلك الأماكن.

شباب يؤمن بالله خالقه وخالق السموات والأرض ، لأنه يرى من آيات الله سبحانه ما لا يدع مجالا للشك والتردد في وجود الله. فيرى في هذا الكون الواسع البديع في شكله ونظامه ما يدل دلالة قاطعة على وجود مبدعه وعلى كمال قدرته وبالغ حكمته؛ لأن هذا الكون لا يمكن أن يوجد نفسه بنفسه ولا يمكن أن يوجد صدفة لأنه قبل الوجود معدوم والمعدوم لا يكون موجداً لأنه هو غير موجود.

ولا يمكن أن يوجد صدفة، لأنه ذو نظام بديع متناسق لا يتغير ولا يختلف عن السنة التي قدر له أن يسير عليها: ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [فاطر: الآية٤٣]، ﴿**مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [الملك:٣-٤]. وإذا كان هذا الكون على نظام بديع متناسق امتنع أن يكون وجوده صدفة؛ لأن الموجود صدفة سيكون انتظامه صدفة أيضاً، فيكون قابلاً للتغير والاضطراب في أي لحظة.

شباب يؤمن بملائكة الله؛ لأن الله أخبر عنهم في كتابه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر عنهم في السنة. وفي الكتاب والسنة من أوصافهم وعباداتهم وأعمالهم التي يقومون بها لمصلحة الخلق ما يدل دلالة قاطعة على وجودهم حقيقة.

شباب يؤمن بكتب الله التي أنزلها على رسله هداية إلى الصراط المستقيم؛ لأن العقل البشري لا يمكنه إدراك التفاصيل في مصالح العبادات والمعاملات.

شباب يؤمن بأنبياء الله ورسله الذين بعثهم الله إلى الخلق يدعونهم إلى الخير ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وأول الرسل نوح وآخرهم محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

شباب يؤمن باليوم الآخر الذي يبعث الناس فيه أحياء بعد الموت ليجازوا بأعمالهم ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة:٧-٨] لأن ذلك نتيجة الدنيا كلها فما فائدة الحياة وما حكمتها إذا لم يكن للخلق يوم يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

شباب يؤمن بالقدر خيره وشره، فيؤمن بأن كل شيء بقضاء الله وقدره مع إيمانه بالأسباب وآثارها، وأن السعادة لها أسباب والشقاء له أسباب.

شباب يدين بالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فيعامل المسلمين بالصراحة والبيان، كما يحب أن يعاملوه بهما، فلا خداع ولا غش ولا التواء ولا كتمان.

شباب يدعوا إلى الله على بصيرة حسب الخطة التي بينها الله في كتابه: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: الآية١٢٥].

شباب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ لأنه يؤمن أن في ذلك سعادة الشعوب والأمة ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: الآية١١٠]، شباب يسعى في تغيير المنكر على النحو الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**".

شباب يقول الصدق ويقبل الصدق، لأن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

شباب يحب الخير لعامة المسلمين؛ لأنه يؤمن بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**".

شباب يشعر بالمسئولية أمام الله وأمام أمته ووطنه، فيسعى دائماً لما فيه مصلحة الدين والأمة والوطن بعيداً عن الأنانية، ومراعاة مصلحته الخاصة على حساب مصلحة الآخرين، شباب يجاهد لله وبالله، يجاهد بالإخلاص له فلا رياء ولا سمعة ويجاهد بالله مستعيناً به غير معجب بنفسه ولا معتمد على حوله وقوته، ويجاهد في الله في إطار دينه من غير غلو ولا تقصير، يجاهد بلسانه ويده وماله حسبما تتطلبه حاجة الإسلام والمسلمين.

شباب ذو خلق ودين، فهو مهذب الأخلاق، مستقيم الدين، لين الجانب رحب الصدر، كريم النفس، طيب القلب صبور متحمل لكنه حازم لا يضيع الفرصة ولا يغلب العاطفة على جانب العقل والإصلاح، شباب متزن منظم يعمل بحكمة وصمت مع إتقان في العمل وجودة لا يضيع فرصة من عمره إلا شغلها بما هو نافع له ولأمته. ومع أن هذا الشباب محافظ على دينه وأخلاقه وسلوكه فهو كذلك بعيد كل البعد عما يناقض ذلك من الكفر والإلحاد والفسوق والعصيان والأخلاق السافلة والمعاملة السيئة.

فهذا القسم من الشباب مفخرة الأمة ورمز حياتها وسعادتها ودينها، وهو الشباب الذي نرجو الله من فضله أن يصلح به ما فسد من أحوال الإسلام والمسلمين وينير به الطريق للسالكين، وهو الشباب الذي ينال السعادة في الدنيا والآخرة".[(١)]

٧- **كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني أن تقوم المرأة المسلمة بدورها الشرعي الكبير حقاً ، في نصرة دعوة الإسلام وتربية جيل النصر والتمكين**، وتقويم وبناء الأسرة المسلمة، التي تقف أمام كل محاولات التشكيك والتذويب والتغريب لها، وتصد كل ذلك بما لديها من عقيدة راسخة، وعبادة قويمة، وأخلاق سامية، وتشريعات جليلة، صاغها منهج الإسلام صيانة لها وتكريماً.

وقيام المرأة المسلمة بدورها الصحيح في تكوين الجماعة المؤمنة يعني أن تكون المرأة المسلمة صالحة مهتدية أولاً، مستقيمة على كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى

---

(١) مشكلات الشباب. لابن عثيمين.

الله عليه وسلم كما جاء في الحديث: "**إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت**" . حديث حسن.

وقيامها بدورها يعني أيضاً أن تكون على علم بكتاب الله وسنة رسوله، عالمة بشرع الله تعالى، بصيرة بأمر الشرع من الحلال والحرام، وبصيرة بالسنة النبوية، مميزة بين أهل السنن والاتباع، وأهل الباطل والابتداع، فهي متلقية للعلم، صحيحة في الفهم، بصيرة بالواقع، تتعلم القرآن وأحكامه، وتعرف حلاله وحرامه، وتفهم تفسير آياته على قدر استطاعتها، وكذلك ففي السنة، تفهم ما الصحيح منها وما الضعيف، وتميز بين الفرض والواجب، والمكروه والحرام، والمباح والمستحب.

وهكذا امرأة صاحبة علم وبصيرة قال تعالى: ﴿**وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ [طه:١١٤]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف:١٠٨].

وقيامها بدورها يعني كذلك تربية الأولاد داخل الأسرة وفق منهج الكتاب والسنة، لأن بداية التمكين أن يربى جيل مسلم يعرف هذا المنهج، ويطبقه في واقعه قولاً وعملاً واعتقاداً.

فتربية الأولاد فريضة على الوالدين، لأنها أمانة الله ورسوله، ولأنها صيانة لهم من الضياع والانحراف عن منهج وشريعة الله تعالى، ولأنها عزة لهم وهداية في الدنيا والآخرة كما جاء في الحديث: "**كلكم راع... والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤلة عن رعيتها... الحديث**".

فقيام المرأة بتربية أولادها له دور كبير في إنشاء دولة الإسلام وخلافته، وذلك حينما تربي أولادها على العقيدة الصحيحة، والعبادة المزكية، والأخلاق الكريمة، والمعاملة الصحيحة، والآداب النبيلة، والعزة بهذا الدين، ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، والتحذير من الذنوب والمعاصي المهلكة، والتحذير من خطر الانحراف والتقليد الأعمى لكل مستغرب وكافر، والعمل للدعوة ونصرة هذا الدين، وطلب العلم النافع المقرب إلى الله تعالى.

٨- **كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني تحرير الولاء والبراء لله ورسوله والمؤمنين**، فلا ولاء ولا نصرة ولا محبة لكافر ولا لمشرك يحارب الله ورسوله وشريعته وعباده المؤمنين مهما كان قدره وشأنه كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة٢٢]. وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥١،٥٢].

وكما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١،١٠٠].

٩- **كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني إعداد الأنفس وتزكيتها بمنهج الله تعالى**، إعداد تربوي شامل، وإعداد إيماني صحيح، وإعداد أخلاقي رفيع، وإعداد تعليمي واعي، وإعداد اقتصادي قوي، وإعداد عسكري مانع، كل هذا من الإعداد المأمور به شرعاً كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

١٠- **كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني بعد كل ذلك:تحقيق الصفات المنشودة في جيل التمكين الموعود**. فجيل التمكين الرباني أهله يعيشون في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، ويعيشون فوق الأرض وقلوبهم تهفو إلى رضا المولى عز وجل ودخول

جناته، ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وأبرز ما يميزهم عن غيرهم أنهم مخلصون لله رب العالمين، فإذا جاءتهم الدنيا جعلوها في أيديهم ولم يدخلوها في قلوبهم، لا يعبدون الأشخاص، ولا الأهواء، ولا الطاغوت أيا كان فقد تبين لهم الرشد من الغي، فكفروا بالطاغوت وآمنوا بالله وحده فاستمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وجيل التمكين يشعر بمعية الله عز وجل، وهذا الشعور يدفع العبد المؤمن إلى الصدع بالحق ويطلق صاحبه الجبن والخوف والهلع، ويحدث في النفس انقلابا نفسيا في حياة الداعية، ولنتذكر حين قال أصحاب موسى: إنا لمدركون قال موسى – عليه السلام –: ﴿**كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الشعراء: ٦٢].

وجيل التمكين هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: "**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس**" رواه مسلم. والمسلم إذا شرح الله صدره للإسلام وملأ قلبه بالإيمان يستسهل كل صعب ويستعذب كل كدر، إن هذا الغريب يرسل للناس من الأشعة الهادية ما ينير لهم الطريق، فهي ليست غربة عزلة وفرار، ولكنها غربة رفعة وسمو وحرص على إيصال دعوته للجميع، فهو لا يعيش في برج عاج بعيدًا عن الناس، بل يتفاعل معهم ويحمل همومهم ويعاونهم في حل مشاكلهم، فالناس جزء منه وهو جزء منهم فلا يتصور أن يتعالى عليهم.

وجيل التمكين طلاب آخرة: لعلمهم بأن متاع الدنيا قليل وبأنه ينتهي ويزول ﴿**وَالآَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ [النساء: ٧٧]، ولذلك تنشئ سعة في نفوسهم، ورقة في مشاعرهم، وتحررا من المادة وظلامها.

وجيل التمكين يجب أن يتربى على الحذر من معصية الله أكثر مما نحذر من أعداء الله، ويجب أن نخاف المعاصي، والمسالك التي تقرب منها سدا للذريعة وبعدا عن الفتنة واتقاء للشبهة، ونستغفر الله ونذكره كثيرا إذا وقعنا في معصية، فهذه ميزة الصالحين﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ورحم الله عمر الفاروق ﷺ عندما وصى سعد بن أبي وقاص وهو في مسيره إلى حرب الفرس، فقال: "... أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ولن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل - لما عملوا بالمعاصي - كفار المجوس ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٥]. وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم.."[١].

وجيل التمكين جيل الصدق، وهو سلوك وصف الله عز وجل به أنبياءه عليهم السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] ، واتصف به حبيبنا ﷺ حتى قبل بعثته، ووصف به ربنا سبحانه الرجال، فقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ...الآية﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وجيل التمكين جيل الحب والإيثار، أي يرى الأخ أن إخوانه أولى به من نفسه، فهو يحب لهم الخير ويعمل على هدايتهم، ولابد أن يفصح لهم عن حبه لهم ويخبرهم به، وأن يترجمه لهم في تصرفاته، فإن هذا أدعى إلى التفاف الناس حوله واستجابتهم له. وأعلى مراتب الحب الإيثار وأدناها سلامة الصدر، وأن يكون لإخوانه كالبنيان يشد بعضه بعضا[٢]، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

وجيل التمكين يجب أن يتولد لديه شعور ذاتي بمسئولية العمل للإسلام،

(١) إتمام الوفاء.للخضري(٧٢).
(٢) نظرات في رسالة التعاليم(٢٩٤).

واستعداد كامل لتلبية حاجات هذه المسئولية من النفس والجهد، فهو لا ينتظر التكليف الحركي لينهض بالأعباء والمسئوليات، وإنما يتولد في أعماقه شعور بالمسئولية ويجري في عروقه إحساس رباني بالتكليف.

فهذا أبو بكر الصديق ﷺ عندما التزم بالإسلام تفجرت فيه الذاتية الحركية فذهب إلى بلال بن رباح، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، ودعاهم للإسلام فأسلموا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصة مؤمن آل فرعون وكيف قام بدعوة قومه إلى الإيمان بدعوة موسى عليه السلام.

وجيل التمكين جيل دعوة وجهاد: كما كان الصحابة من المهاجرين والأنصار لا يشغلهم جهاد عن جهاد ولا ميدان عن ميدان، فهم دائما في صراع متواصل مع الفجرة في الداخل والكفرة في الخارج، لا يلقون سلاحهم ولا يستريحون من كفاحهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

قد ترى أحدهم وهو العربي يقاوم الزحف الشيوعي الأحمر في أفغانستان، وترى آخر وهو أفغاني يقاتل الصرب في البوسنة، فالكفر ملة واحدة ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [الأنفال: ٧٣]. ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [التوبة: ٧١]، يجاهدون في سبيل الله في كل معركة تطلبهم وبكل سلاح يمكنهم.

ذلكم هو الجيل الذي ننشده وتنشده معنا الأمة بكاملها، وهو الجيل الذي تعمل القوى العالمية على إجهاضه، وشغله عن معاركه ومعارك أمته الكبرى بمعارك جانبية تافهة، وإغراقه في دوامة من الجدل لا يخرج منها، إن هذا الجيل هو جيل النصر الذي تتحرر على يديه كل أرض دنسها الطواغيت والفجار، هو الذي ترتفع به راية الله في أرض الله، هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر الله عز وجل.(١)

١١- كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني الصبر والثبات على منهج الله حتى النصر والتمكين، أو الموت والشهادة في سبيل الله تعالى كما ثبت السابقون الأولون من قبلنا، ويكون الصبر على الإيذاء والسخرية الذي يتعرض له الدعاة إلى الله، على طول الطريق،

---

(١) فقه النصر والتمكين.للصلابي(٣٩٥-٤٠٤)بتصرف.

فإن طريق التمكين ليست بالسهلة اليسيرة، لأنها تحتاج إلى علم وحكمة وعمل، وكذا صبر دائم دؤوب.

لأن الابتلاء للدعاة والمصلحين سنة من سنن الله تعالى، "**لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**"، فالدعاة يبتلون بأذى الكفرة والمشركين والملحدين والمنافقين بالقول والكيد والتعذيب، ونحن نرى كل يوم على صفحات الجرائد والصحف والمجلات التي تشرع للعهر والدعارة، وتعلن الحرب على مسلمات هذا الدين ، وعلى الدعاة إلى الله، وتعمل على النيل منهم والتشهير بهم وتشويه صورتهم ، وكل هذه الألوان من أنواع الابتلاء وسننه. إن البلاء قد يشتد بالدعاة إلى درجة كبيرة، ومع ذلك فهم صابرون محتسبون على طول الطريق وآلامه، وشعارهم في ذلك:

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبدًا

فعلى الداعية المسلم أن يقابل الأذى الذي يلقاه من أعدائه وخصومه بالصبر الجميل، فإن هذا الصبر، هو الطريق الثقيل لإعداد الرجال، وتربية الأبطال، وصناعة الأمة الإسلامية من جديد لذلك أمر به النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ابتداءً كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [المزمل:٥]، وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ**﴾ [النحل:١٢٧].

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية يوم أن عرف حقيقة هذا الطريق، وحقيقة السير فيه فأفصح قائلاً: "ما يفعل بي أعدائي، أنا جنتي معي، وبستاني في صدري، إن قتلي شهادة، ونفيي سياحة، وسجني خلوة، وتعذيبي جهاد في سبيل الله".

إن الذين حاربوا الدعوة والدعاة ومبادئ الإسلام وعقائده ذهبوا في مزبلة التاريخ وبقيت لنا أمثالهم عبرة وعظة.

وإن الذين صبروا وجاهدوا على دعوتهم ومبادئهم المثلى، انقلبوا إلى فضل من الله ورضوان، ولم يمسسهم سوء بل فازوا بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة وبقيت لنا ذكراهم عاطرة فواحة "**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**"، وصدق القائل:

هذي الـدماء علـى الطريـق منـائر ... قدســـية الأضـــواء والألـــوان

تـــدعوا الغفـــاة الراقـــدين تنبهـــوا ... وتحـــرروا مـــن ربقـــة الإدمـــان

ما جنـة الفـردوس مـأوى سـاكت ... عـــن حقـــه ومنـــافق وجبـــان

درب الشـــهادة لم تـــزل خطواتـــه ... مشـــتاقة لقوافـــل الفرســـان

الـرافعين رءوسـهم صـوب العـلا ... يرجـــون دار الـــروح والريحـــان

نقول أخيرًا إن الذين يحاولون إحياء روح الـدعوة والعـودة إلى الكتـاب والسـنة نقول لهم: ﴿**اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَـاءُ مِـنْ عِبَـادِهِ وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الأعراف:١٢٨].

١٢- كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني قيام الجماعة المؤمنة بواجبـها الشـرعي في التصفية والتربية على منهج وبصيرة، نعم تصفية للدين مما شابه من انحرافـات وخرافـات وبدع وأهواء، وتربية على منهج صحيح واضح، أما عـن ضـرورة اتبـاع هـذا المـنهج فيقول العلامة محمد ناصـر الـدين الألبـاني رحمـه الله تعـالى: "إن الخـلاص إلى أيـدي هؤلاء الشباب يتمثل في أمرين لا ثالث لهما؛ التصفية والتربية.

التصفية: وأعني بالتصفية: تقديم الإسلام على الشباب المسلم مصفىً من كل مـا دخل فيه على مِّر هذه القرون والسنين الطوال؛ من العقائد ومن الخرافات ومن البدع والضلالات، ومن ذلك ما دخل فيه من أحاديث غير صحيحة قـد تكـون موضـوعة، فلا بد من تحقيق هذه التصفية؛ لأنه بغيرها لا مجال أبداً لتحقيق أمنية هؤلاء المسلمين، الذين نعتبرهم من المصطفين المختارين في العالم الإسلامي الواسع. فالتصفية هذه إنمـا يراد بها تقديم العلاج الذي هو الإسلام، الذي عالج ما يشـبه هـذه المشـكلة، حينمـا كان العرب أذلاء وكانوا من فارس والروم والحبشة من جهة ، وكـانوا يعبـدون غـير الله تبارك وتعالى من جهة أخرى.

نحن نخالف كل الجماعات الإسلامية في هذه النقطة، ونرى أنه لا بد من البدء بالتصفية والتربية معاً، أما أن نبدأ بالأمور السياسية، والذين يشتغلون بالسياسة قد تكون عقائدهم خراباً يباباً، وقد يكون سلوكهم من الناحية الإسلامية بعيداً عن الشريعة، والذين يشتغلون بتكتيل الناس وتجميعهم على كلمة – إسلام – عامة ليس لهم مفاهيم واضحة في أذهان هؤلاء المتكتِّلين حول أولئك الدعاة، ومن ثم ليس لهذا الإسلام أي أثر في منطلقهم في حياتهم، ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء وهؤلاء لا يحققون الإسلام في ذوات أنفسهم، فيما يمكنُهم أن يطبِّقوه بكل سهوله. وفي الوقت نفسه يرفع هؤلاء أصواتهم بأنه لا حكم إلا لله، ولا بد أن يكون الحكم بما أنزل الله؛ وهذه كلمة حقٍّ، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه.

العلة الأولى الكبرى: بُعدهم عن فهم الإسلام فهماً صحيحاً، كيف لا وفي الدعاة اليوم من يعتبر السلفيين بأنهم يضيعون عمرهم في التوحيد، ويا سبحان الله، ما أشد إغراق من يقول مثل هذا الكلام في الجهل؛ لأنه يتغافل – إن لم يكن غافلاً حقًّا – عن أن دعوة الأنبياء والرسل الكرام كانت "**أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**". بل إن نوحاً عليه الصلاة والسلام أقام ألف سنة إلا خمسين عاماً، لا يصلح ولا يشرع ولا يقيم سياسة، بل: يا قوم اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. هل كان هناك إصلاح ؟ هل هناك تشريع ؟ هل هناك سياسة ؟ لا شيء، تعالوا يا قوم اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فهذا أول رسول – بنص الحديث الصحيح – أُرسل إلى الأرض، استمرَّ في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً لا يدعوا إلا إلى التوحيد، وهو شغل السلفيين الشاغل، فكيف يُسفُّ كثير من الدعاة الإسلاميين وينحطُّوا إلى درجة أن ينكروا ذلك على السلفيين" (١).

أما عن ضرورة ملازمة التربية كمنهج تربوي تمكين الجماعة المؤمنة فيقول: "التربية: والشطر الثاني من هذه الكلمة يعني أنه لا بد من تربية المسلمين اليوم، على أساس ألا يفتنوا كما فُتِن الذين من قبلهم بالدنيا. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "**ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تُفتح عليكم زهرة الحياة الدنيا،**

---

(١) التصفية والتربية.الألباني.

فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم". ولهذا نرى أنه قَلَّ مَنْ ينتبه لهذا المرض فيربي الشباب، لا سيما الذين فتح الله عليهم كنوز الأرض، وأغرقهم في خيراته – تبارك وتعالى – وفي بركات الأرض ، قلَّما يُنبه إلى هذا.

مرض يجب على المسلمين أن يتحصنَّوا منه، وأن لا يصل إلى قلوبهم "**حب الدنيا وكراهة الموت** "، إذاً فهذا مرض لا بد من معالجته، وتربية الناس على أن يتخلصوا منه. الحل وارد في ختام حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: "**حتى ترجعوا إلى دينكم**".

الحل يتمثل في العودة الصحيحة إلى الإسلام، الإسلام بالمفهوم الصحيح الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته. قال تعالى: "**إن تنصروا الله ينصُرْكم**" وهي التي أجمع المفسرون على أَنَّ معنى نصر الله: إنما بالعمل بأحكامه، فإذا كان نصر الله لا يتحقق إلا بإقامة أحكامه، فكيف يمكننا أن ندخل في الجهاد عملياً ونحن لم ننصر الله؛ عقيدتنا خراب يباب، وأخلاقنا تتماشى مع الفساد، لا بد إذاً قبل الشروع بالجهاد من تصحيح العقيدة وتربية النفس، وعلى محاربة كل غفلةٍ أو تغافُل، وكلِّ خلافٍ أو تنازع "**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم**" وحين نقضي على هذا التنازع وعلى هذه الغفلة، ونُحِلُّ محلها الصحوة والائتلاف والاتفاق؛ نتجه إلى تحقيق القوة المادية "**وأعدوا لهم ما استطعْتُم من قوة ومن رباط الخيل**".

أخلاق المسلمين في التربية خراب يباب. أخطاء قاتلة، ولا بد من التصفية والتربية والعودة الصحيحة إلى الإسلام، وكم يعجبني في هذا المقام قول أحد الدعاة الإسلاميين من غير السلفيين، ولكن أصحابه لا يعملون بهذا القول: "أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم دولته في أرضكم".

إن أكثر الدعاة يخطئون حين يغفلون مبدأنا هذا، وحين يقولون: إن الوقت ليس وقت التصفية والتربية، وإنما وقت التكتل والتجمُّع. إذ كيف يتحقق التكتُّل والخلاف قائم في الأصول والفروع. إنه الضعف الذي استشرى في المسلمين. ودواؤه الوحيد

يتلخَّص فيما أسلفتُ في العودة السليمة إلى الإسلام الصحيح، أو في تطبيق منهجنا في التصفية والتربية، ولعلَّ في هذا القدر كفاية. والحمد لله رب العالمين"(١).

١٣- كما أن التكوين للجماعة المؤمنة يعني اليقين القلبي بأن المستقبل للإسلام ودعوته، نعم هذا اليقين المسلم به عند الصادقين المؤمنين، كما قال تعالى في كتابه: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [المجادلة:٢١]. وقال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور:٥٥]. وقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ**﴾ [الروم٦٠:]. وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة٣٣]، وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ [الفتح٢٨].

وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزاد الكبير من هذا لما استضعف المؤمنون وأوذوا ونكل بهم وعذبوا وقتلوا ولكنهم ثبتوا وأيقنوا أن الله ناصر دينه، ممكن لعباده، ولو بعد حين، والله غالب على أمر ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فما علينا إلا أن نعمل لدين الله، وأن نصبر حتى يأتي وعد الله.

* * *

ثانياً: قيام المجتمع الإسلامي بواجباته الشرعية:

نعم ينبغي على المجتمع المسلم أن يقوم بدوره في بناء جيل التمكين، وأن يساهم بدوره في مسيرة الدعوة الإسلامية ، ولا يقف موقف المشاهد أو المتخاذل، فلا يقدم شيئاً ولا يؤخر، وقد بين الله تعالى لنا أن بني إسرائيل لما تخاذلوا عن القيام بأعباء الشريعة، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي المنكر ، حل بهم عقاب الله ولعنته وغضبه كما قال عز وجل: ﴿**كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة٧٩]،

---

(١) المصدر السابق.

لقد حق عقاب الله عليهم لأنهم أهملوا الوجبات التي تصون مجتمعهم من الانحراف والضياع، وتقودهم إلى الخير والرشاد.

فيجب على أمة الدعوة والهدى أن تقوم بواجبها الذي رسمه الله تعالى لها قال تعالى:﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ من بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ * وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران :١٠٤-١١٠].

فهذه الآيات تبين للمجتمع المسلم ما يجب عليه تجاه دينه ونفسه ، صيانة له وأماناً، لأن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحصل بها من الخير والصيانة للمجتمع المسلم الخير الكثير، ومن هنا جاءت الشريعة بها حتى في طرقات المسلمين العامة، وتوجب فيها عدم التغاضي عن هذه الفريضة.

والمتأمل في السنة النبوية يرى ذلك كما جاء في الحديث عند الشيخين البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"إياكم والجلوس في الطرقات" فقالوا: يا رسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه" قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله. قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"**. لأن المعروف دلالة على كل خير، وإرشاد لكل بر، والمعروف هو كل ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم من الخير والبر والتقوى، فالمسلم في طريقه لا يكون إمعة لا يدل الناس على الخير وما فيه الصلاح والهداية لهم، وإنما يرشد ويعلم ويحث الناس عليه، فإذا وجد مسجداً يحتاج إلى تمام بناء أو ما شابه ذلك حثهم وأمرهم بالصدقة، أو إذا وجد فقيراً محتاجاً أو مريضاً أو

كبير السن فإنه يأمرهم بذلك الخير وإن استطاع هـو فلـيكن أول فاعـل لـذلك الخـير ليكون قدوة للناس وإماما لهم إلى الجنة ورضوان الله تعالى. لأن الأمر بـالمعروف مـن أجل فرائض الإسلام التي تناسها كثير من الناس اليوم إلا من رحـم الله تعـالى، فبهـا قام الإسلام، وهى خيرية هذه الأمة دون غيرها من الأمم **"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"**.

أما النهي عن المنكر: فالمنكر والمحرم كل نهـي نهانـا عنـه الله ورسـوله ، وجـاءت الشريعة بتحريمه والوعيد عليه ، وكما قلنا أننا جميعاً في سفينة واحدة فإن غرقت غرق الجميع، فالمسلم ليس بالفاقد للبصـيرة ، ولـيس بالمتغـابي عـن الواجبـات والمنكـرات والحرمات، يهز كتفيه للمنكر ثم يقول أمر لا يعنيني فلم أتـدخل فيـه، هـذا ولا ريـب نوع من السلبية القاتلة التي يكون آخرها عقاب وغضب من الله تعـالى ، ولـن يلحـق شخص بعينه بل على كل المجتمع يقع العقاب، وترك النهى عن الشـئ المنكـر والمحـرم من أنقص صفات بني إسرائيل التي ذكرها الله تعالى لنا في القرآن، حتى نأخذ الـدرس والعبرة منهم **"كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"**.

إن المجتمع الغربي والأوربي وغيره من المجتمعات الكافرة، لا تلتفت كثيراً إلى شئ من هذه المنكرات أو تعبأ بوقوعها، إلا فيما كان عائداً لهـم بشـئ مـن مصـالح الـدنيا الفانيـة الرخيصـة، فهـم لا ينكـرون منكـراً ولا يعرفـون معروفـاً إلا بقايـا ورثوهـا وتناسوها على طول الزمان، فجل شوارعهم تحولت إلى دور سينيما، وملاهـي ليليـة، ذات اليمين وذات الشمال، ومواقعة للفاحشة اللهم إلا خشية ملاحقة القانون الـذي لا يردعهم ولا يهذب نفوسهم وأخلاقهم.

وطرقات المسلمين اليوم قد وقعـت فيهـا كـثير مـن مخالفـات الشـريعة وتعـدي حرمات الله تعـالى مـن الغـش في البيـع والشـراء، والظلـم، وتـبرج النسـاء والعـري والتهتك المائع الرخيص.

وانتشار المقاهي ودور السينيما وعلـوا الأصـوات بالغنـاء والفحـش مـن القـول والبذئ منه وغير ذلك. وحدث معي عـن العـري والتعـري علـى شـواطيء البحـار المسلمة، والتي تعرت وتخلت عن خلق من الحياء البشري والفطري، وأصبحت تسـاير

الحيوانات وتحاكيها بل هم أضل منها، وحدث عن الفجور وشرب الخمور، وحدث عن بيوت الدعارة والزنى التي عم بلائها، حتى أنك تسير وتحسب أنك في بلد من بلاد الكفر والإلحاد.

وحدث عن الاختلاط الفاحش بين الرجال والنساء، والشباب والفتيات في الوظائف ودور العمل، والمصانع والمتاجر والأسواق، حدث عما يحدث ويسمع ويقال، حتى أخص أسرار الأزواج تعرف وتنشر عياذاً بالله. وحدث عن منكرات ومنكرات تقع في أفراح المسلمين، من اختلاط سافر، وتبرج فاضح، وتهتك مائع، وغناء وخمر، ورقص وعهر، وتعد على كل أدب وحياء وفضيلة.

فالمسلمون يجب عليهم في حياتهم عامة، وفي طرقهم خاصة النهي عن كل ما يغضب الله تعالى، ويخالف شريعته وكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وألا يشارك الناس بعضهم بعضاً في معاصيهم ومحرماتهم. بل الواجب على المسلم أن ينهى ويأمر ويرشد ويعلم، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة والأسلوب المهذب المقبول للنفوس، حتى لا يفسد من حيث يريد الإصلاح، أو يهدم من حيث يريد البناء، فالأمر بالمعروف إنما يكون بالمعروف ، والنهي عن المنكر إنما يكون بغير منكر. وهذا أمر جاء به القرآن وجاءت به السنة النبوية ويحتاج إلى مزيد بيان وبسط في موضع آخر، والحديث جمع آداباً جليلة حقاً لو استقام المسلمون عليها لرأينا مجتمعاً راقياً في أخلاقه، عالياً في آدابه ، آمنا في معاملاته، لأنه أقام شريعة الله تعالى فيما أراد الله له.

كما يجب على المجتمع الإسلامي ألا يرضي أن يحكم حياته وأوضاعه القوانين الغربية الكافرة، بل على المجتمع أن يعلن في كل موقف رفضه لهذه القوانين التي هي من صنع البشر، وليست من منهج الله، والتي تبعده عن منهج القرآن والسنة، الذي ضمن الله لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

فالإسلام عقيدة وشريعة ، وأي تجزئة بينهما تعني كفر بهذا المنهج الرباني كما قال تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ**

خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة٨٥].

فعلينا أن نعتز بهذا الدين، وأن نعتصم بحبله قال تعالى: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** [الحج:٧٨].

هذا واجب المجتمع الإسلامي الذي يسعى للنصر والتمكين، ويسعى لرضى الله تعالى والسعادة في الدنيا والآخرة.

* * *

ثالثاً: قيام العلماء والدعاة بواجبهم وتوحيد الصف المسلم:

وأستطيع هنا بداية أن أقف مع مكانة العلماء والدعاة ودورهم الكبير في توحيد الصف المسلم، وتجميع جهود الأمة الإسلامية التي شتتها الأهواء والبدع، وحب الرئاسات، والحزبيات البغيضة، ومن جانب آخر اللهث وراء الغرب، والتقليد الأعمى خلف ما سموه حضارة وتقدماً. وهنا نقول ماذا يعني قيام العلماء والدعاة بدورهم في بناء جيل التمكين؟ وماذا يعني توحيدهم للصف المسلم؟ نبرز هذا في نقاط سريعة:

[١]**حفظ مكانة العلماء والدعاة إلى الله تعالى وإجلالهم**: نعم يجب أولاً على الأمة الإسلامية حفظ مكانة أهل العلم والدعاة إلى الله تعالى، لأن العلماء ورثة الأنبياء، ورثوا العلم والدعوة، وورثوا الصلاح والهدى، ولا يمكن للأمة أن تتحرك بدون علمائها ومشورتهم وقولهم.

وكم رأينا ثبات الإمام أحمد بن حنبل عليه رحمة الله أمام فتنة القول بخلق القرآن، وأمام علماء السوء الذي زجوا به وبأمثاله من أهل العلم إليها، ومع ذلك صبر على هذه الفتنة العمياء، لأنه لو زل وهو صاحب الكلمة الصواب، والرأي المسموع، لزل خلفه عالم كثير، فالعالم دوره كبير في نصرة الحق، وخدمة الدعوة، والحركة لها، وكم

وقف العلماء في وجه الطغيان، ينصرون الحق، ويجاهدون في سبيل الله تعالى، والتاريخ مملوء بذكر آثارهم وثمار صدقهم وجهادهم.

لقد رفع الله تعالى من منزلة العلماء كما قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ وقال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ وبين أن العلماء أكثر الناس خشي لله تعالى فقد قال جل شأنه: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ ولم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في الاستزادة من شيء إلا العلم قال تعالى: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ واستشهد بهم سبحانه في اجل مشهود عليه وهو توحيده فقال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه: **أحدها**: استشهادهم دون غيرهم من البشر، **والثاني**: اقتران شهادتهم بشهادته، **والثالث**: اقتران شهادتهم بشهادة ملائكته.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإنّ الله تعالى لا يستشهد من خلقه إلا العدول". والأحاديث الشريفة طافحة بذكر فضل العلم وبيان فضل العلماء نذكر منها حديث معاوية: "**من يرد الله به خيرا يفقه في الدين**" متفق عليه، ومنها حديث أبي هريرة: "**ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة**" رواه مسلم، ومنه حديث أبي أمامة: "**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم** " **ثم قال صلى الله عليه وسلم**: "**إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**". رواه الترمذي.

فالآيات والأحاديث تبين فضل العلماء وخطورة القدح فيهم لأن لحومهم مسمومة فمن تكلم فيهم فقد هلك بتعريضه نفسه لغضب الله تعالى ففي الحديث القدسي: "**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ....** " الحديث. رواه البخاري والعلماء بلا شك من أولياء الله تعالى، قال الإمام الطحاوي في عقيدته المختصرة: "وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون

إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل". فحال الأمة مع هؤلاء العلماء والدعاة إلى الله تعالى حفظ مكانتهم، مع إجلالهم ومتابعتهم فيما وافقوا فيه الحق بدليله من الكتاب والسنة.

ولكن نرى على الجانب الآخر ممن لا يريدون لدعوة الإسلام أن تسمع، ولا أن يهتدي إليها الناس، يقفون موقف التنقيص والتشويه وإثارة الشبهات، حول هذه الكواكب المنيرة، والنجوم الزاهر، ورثة ميراث النبوة، وحملة راية العلم والإصلاح، ويقولون هؤلاء العلماء لا يصلحون لشيء من السياسات، ولا يعيشون إلا مع الكتب والأوراق، ولا يعلمون أحداث الواقع، ولا يفقهون الدوامات السياسية ولا الاقتصادية، فهم مع أنفسهم وكتبهم، وبين أطباق الطعام يتنقلون، وفريق آخر ينظر إليهم بعين السخط والبغض، لأنهم صاروا من المقربين إلى ذوي الملك والسلطان، وصارت فتاواهم وأقوالهم توافق هوى الحكام والساسة.

وهؤلاء العلمانيون والمنافقون يأتون كل يوم بالشبهات حول الدعاة إلى الله تعالى، وأنهم أصحاب دنيا وشهرة، وأنهم لا يجيدون إلا لغة الصياح على المنابر، في حين أنهم يرون أنفسهم من المثقفين والمتنورين غير ذلك ، فتلك النظرات والاتجاهات من الاتجاهات ساهمت كثيراً في تشويه صورة ومكانة أهل العلم، إضافة إلى المنتسبين إليهم دون فهم ولا علم ولا بصيرة.

ولكن كل هذا ينبغي أن يطرح جانباً، لأن جل هؤلاء لا يمثلون شيئاً من حجم الدعاة والعلماء الربانيين والصادقين، السائرين على منهاج العلم والنبوة، نعم هناك أخطاء وزلات، نعم هناك أهواء وهفوات، نعم هناك جهل وتقصير، نعم هناك حب الجاه والسلطان، ولكن هذا لا يعني تعميم الأحكام، ولا تضييع المكانة السامية لأهل العلم التي رفعهم إليها ربنا سبحانه وتعالى.

إن الأمة تقع في الضلال والفتن والبدع إذا لم يقودها العلماء الربانيون، إن الأمة تخنع للطغاة والظالمين إذا لم يصدع العلماء والدعاة بكلمة الحق في وجوه الطغاة والظالمين. وإن الأمة تموت وتفنى يوم أن يُحقر العلم وحملته ودعاة الحق، وكم قرأنا وأدركنا مكانتهم يوم أن جاء التتار بالدمار.

ويوم أن جاء الصليبيون بخيولهم وأذنابهم ، تصدى العلماء وقالوا كلمة الحق، وحثوا الناس على رفع رايات الجهاد في سبيل الله تعالى، واسترداد مقدسات المسلمين.

وهل وقف اليوم بأمر الله تعالى وحده في وجه الطغيان الصليبي الغربي والصهيوني على العالم العربي والإسلامي إلا العلماء والدعاة إلى الله ، لقد أذن الله لمسيرة دعوة الإسلام أن تعود من جديد، ولولا أن الله غالب على أمره، لضاعت القدس وفلسطين وكل العالم الإسلامي من أول يوم دخل فيه اليهود وغيرهم إلى ديار المسلمين، فلتجتمع الأمة من جديد حول علمائها، وليكونوا هم من يقود دفة الدعوة ومسيرتها، وإلا فلا خير في أمة لا تعرف قدر علمائها ودعاتها.

[٢] **بيان الحق والعلم والنصيحة للمسلمين:** نعم يجب على أهل العلم بيان الحق والعلم الذي أمر الله تعالى ببيانه ورسوله، وعدم كتمان هذا العلم ما دام من كتاب الله وسنة رسوله، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران:١٨٧].

كما أن تبيينهم للحق والعلم منهج النبي صلى الله عليه وسلم، وبهذا جاء القرآن كما قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٤٤].

كما أنه وظيفة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [إبراهيم٤:]. وفي السنة النبوية النصوص الكثيرة الدالة على وجوب بيان الحق للناس كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**بلغوا عني ولو آية**"، فالتبليغ للعلم أمر واجب على أهل العلم الذين حملوا هذا الأمانة وهذه التبعة الثقيلة، وإلا نزل بهم عقاب من الله تعالى كما قال عز وجل في كتابه عن بعض بني إسرائيل: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الجمعة:٥]، وكما قال تعالى عن هذا الذي أضاع

العلم والهدى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف:١٧٥]. كما أن بيان الحق للناس يعني أن يعلم الناس حق الله تعالى عليهم، وحقهم عليه سبحانه وتعالى، وقيامهم بحق التوحيد والعبودية له دون من سواه من سائر المخلوقات والحيوانات.

فالناس يقعون في براثن الشرك والضلال، وفي شباك الوثنية والكفر، إذا لم يتكلم أهل العلم بما علمهم الله تعالى من كتابه وسنة رسوله.

والناس يعبدون القبور، ويطوفون بها، ويذبحون عندها، ويعظمون أهلها أعظم من تعظيمهم لرسل الله تعالى، إذا لم يعلموا أن هذا أمر مخالف لفطرة العبودية، الضاربة في أعماق كل إنسان، وأنه لا أحد يملك ضراً ولا نفعاً، ولا تصريفاً ولا تدبيراً في الكون مع الله.

والناس يعظمون الأقطاب والأولياء ويرفعونهم فوق الرسل والأنبياء إذا لم يعلموا أن هذا من الضلال والزيغ عن الهدى والحق والتوحيد.

والناس لا يعلمون أحكام الشريعة والشعائر، من الوضوء والتيمم، والصلاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، والصدق، والصبر، والإخلاص، وأداء الأمانات، وصيانة الحرمات، وسائر البيوع والإجارات، والمعاملات، إذا لم يبين لهم أهل العلم ذلك ويفقهونهم في دينهم.

والناس يأكلون الحرام بجميع أشكاله وصوره من الربا والغش والظلم والتطفيف في الموازين، والكذب والاحتيال، وغيرها كثير، إذا لم يبين أهل العلم ذلك.

والناس يقعون في الأعراض، ويهتكون الحرمات، ويقعون في الزنى والفواحش واللواط، وتنحط أخلاقهم، وتذهب رجولتهم ومروءتهم، إذا لم يبين ذلك أهل العلم..

والناس يتفرقون جماعات وأحزاب متفرقة، وتتشتت جهودهم ودعوتهم، وينحرفون عن مسار رسالتهم وغايتهم، إذا لم يبين لهم أهل العلم الحق بدليله.

والناس يلهثون وراء كل غربي وشرقي مخالف لشريعة الإسلام، من القوانين الوضعية، والأفكار العلمانية، والتيارات المذهبية، والأفكار الوجودية، والإباحية، والإلحادية، إذا لم يتكلم أهل العلم ويبنوا للناس الحق المنزل من عند الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

والناس يخنعون للطغاة والظالمين، ويركنون للحكام الظالمين، ويستخرجون من العلم الذي معهم ما يوافق أهواء حكامهم الظالمين، إذا لم يبين أهل العلم الحق والشريعة.

إن على أهل العلم والدعاة جهد كبير، وجهاد واسع ميدانه، قليل فرسانه، فالواجب على كل عالم بكتاب الله وسنة رسوله، ألا ينزوي ويضعف أمام أهل الظلم، فإن من أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، يجهر بها لوجه الله تعالى، لا يخاف في الله لومة لائم. وألا يكتم شيئاً من العلم وبيان الحق، وبيان المنهج السديد، والطريق إلى إقامة الأمة المسلمة من جديد.

[٣] **حمل أمانة العلم والدعوة إلى الله تعالى**: كما يعني قيام العلماء والدعاة بواجبهم أن يتحركوا بهذه الدعوة المنيرة بين الناس، فإن الواجب على العالم الذي حمل أمانة العلم والدعوة، ألا يركن إلى زهرة الدنيا، ويجعل الدعوة جانباً مهملاً في حياته، كلا، بل عليه أن يكون رحالة سائحًا في محلات مدينته، ومدن قطره، يبلغ دعوة الإسلام.

انظر مثلاً كيف كانت رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسيح في البوادي تبلغ الأعراب كلمة الإسلام، وتبشر به، ولم يكن ثمة انتظار ورودهم إلى المدينة، ألا ترى أن الأعرابي الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أركان الإسلام، فلما أخبره بها وقال: "**لا أزيد عليهن ولا أنقص" كيف كان قد بدأ سؤاله بأن قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا محمد: أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟**" رواه مسلم. أتاهم رسوله داعيًا، وكذلك الناس تُؤتى، ومن انتظر أن يأتيه الناس فليس بداعية، ولو فصلت كلمة هذا الأعرابي لتبين لك كيف فارق هذا الصحابي الداعية المدينة لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم لقوم هذا، وكيف فارق أهله وبيته

وأولاده، وكيف اجتاز المفاوز وصحراء من بعد صحراء، وكيف تعرض للمخاطر والحر أو البرد، ليبلغ دعوة الإسلام. وهذا شأن الدعوة التي تريد أن تصل إلى أهدافها، لابد من تحرك ومبادأة وغدو ورواح وتكلم وزعم، ليس القعود والتمني من الطرق الموصلة، فافقه سيرة سلفك وقلدهم، تصل، وإلا، فراوح في مكانك، فإنك لن تبرحه...

ويروي لنا التابعي الكوفي الفقيه النبيل عامر الشعبي، أن رجالاً "خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريبًا يتعبدون، فبلغ ذلك عبد الله بن مسعود، فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم، فقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالو: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد، فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا".

كان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد، أو قيام بحق، أو اتباع للأمر، سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله. لم يكن بالمنعزل المتواري الهارب من الناس، فالداعية يفتش عن الناس، ويبحث عنهم، ويسأل عن أخبارهم، ويرحل للقائهم، ويزورهم في مجالسهم ومنتدياتهم، ومن انتظر مجئ الناس إليه في مسجده أو بيته، فإن الأيام تبقيه وحيدًا، ويتعلم فن التثاؤب.

وجاء في التعريف والترجمة بموسى بن حزام شيخ البخاري والترمذي: "إنه كان ثقة صالحًا، لكنه كان في أول أمره ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله تعالى بأحمد بن حنبل، فانتحل السنة، وذب عنها، وقمع من خالفها، مع لزوم الدين، حتى مات".[1]

[٤] **العمل على توحيد الصف المسلم وجهود الأمة الإسلامية**: كما يعني قيام العلماء والدعاة بواجبهم، العمل على توحيد الصف المسلم، وتحقيق الأخوة الإيمانية، وأعني به توحيد جهود العاملين للدعوة ونصرة الإسلام، لأنهم هم المعنيون أولاً وأخيراً، لأن جمهور المسلمين اليوم صاروا أتباعاً وجلهم على التقليد، إلا من وقف على شيء من البحث والعلم وأقوال العلماء. فنحن نرى بسبب التفرق والوقوع في دائرة

(١) علو الهمة للشيخ محمد إسماعيل المقدم.

الاختلاف السائغ وغير السائغ، متابعة للجماهير بحسب ما غلب عليه الظن أنه الحق، فترى جمهوراً مع جماعة وآخر مع أخرى وهكذا.

فالمقصود أن يقوم الدعاة والعاملون للإسلام بتوحيد صفوفهم، ونزع الحقد والحسد والبغضاء من قلوبهم، وأن يحققوا أخوة الإسلام والإيمان كما ينبغي، وأن يقفوا وقفة رجل واحد يريد الحق والإسلام، لأن الاختلاف والتفرق كما نراه الآن أظنه هو العقبة الكبرى أمام إقامة خلافة الإسلام ونصرة المسلمين.

لماذا؟ لأن الحكام والظالمين نعم هم عقبة كبيرة في مسيرة الدعوة والتوحد، لكنها عقبة زائلة بزوال أسباب إيجادها، فالله تعالى ما سلط هؤلاء على الأمة والتحكم فيها إلا يوم أن تحول بأس الأمة فيما بينها، فصار الاختلاف والتفرق والشحناء والحسد، والتزكية للنفس والمنهج ولو كان على غير سنة، فسلط الله علينا هؤلاء بسبب عدم اتباعنا لكتاب الله وسنة رسوله، وهذا حق لا يماري فيه إنسان فضلاً عن متابع للكتاب والسنة.

كما أن الجماعات والدعوات اليوم كل منها يريد أن يصل أولاً قبل الآخر، بل ويرى نفسه جديراً بالوصول قبل إخوانه العاملين معه، فهو يرى من نفسه صاحب باع طويل في الدعوة، وتجربة كبيرة أيضاً.. إلخ. ومع وجود عقبة الحكام الظالمين كثيراً، لكنها عقبة تذوب وتتلاشى أمام وحدة الصف المسلم، ووحدة الدعاة بصدق وإخلاص للحق وتجرد، كما أمرنا ربنا بقوله تعالى: "**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا.. الآية**"، وكما قال ابن القيم رحمه الله: "لا تظن أن العدو غلب ولكن الحافظ أعرض".

إن الدعاة والعلماء إذا توحدت جهودهم ودعوتهم، فلن يقف في وجههم شيء بأمر الله، لأنهم عندها يد واحدة ، ويد الله مع الجماعة، ولأن الجماهير ستكون معهم تؤيدهم وتنصرهم بهذا الدين بحب ومتابعة وشغف للعدل والسلام، ولكن هنا ستظهر أمامنا عقبات كبيرة، إذ كيف تتوحد هذه الدعوات والجماعات، وهي ترى نفسها أجدر وأحق بالتقدم والفهم والقيادة. وكيف تتوحد وهي ترى نفسها أدق

فهما، وأقدر على فهم واقع الأمة وحدها دون غيرها من الدعوات. بل ولربما ترى نفسها أولى بالخلافة والحكم، **والمتأمل في جل هذه الاختلافات يجدها ترجع بالجملة إلى أمرين:**

الأول: الجهل بحقيقة الدعوة وأصولها ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم، وقد تعجب من هذا وتقول: وهل أحد اليوم يجهل حقيقة الدعوة وأصولها، بعد هذا التعدد الدعوي والفكري واختلافاته، والجواب نعم؟

لأننا بينا وأشرنا وأكدنا مراراً، على أصل كبير في طريق الدعوة الإسلامية، أكثر الدعاة والعاملين اليوم لا يلتفتون إليه مع أنه من أجل الأصول وأكبرها، وهو الأصل الوحيد بعد الكتاب والسنة الذي لو حققته الجماعات والدعوات، لرفع محل الخلاف والشقاق والنزاع بينهم، ولتوحدت صفوفهم، هذا الأصل يكمن في متابعة الصحابة والسلف الأول قبل كل شيء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نص على ذلك بقوله: **"فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً.. ثم قال.فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين.. الحديث" وقوله أيضاً: "الجماعة ما أنا عليه وأصحابي".**

نعم فإن منهج السلف هذا هو الإسلام بصفائه وشموله. وما الجماعات الدعوية العاملة اليوم إلا دعاة إلى هذا المنهج. فلا يظنن ظان أن دعوته بديلاً عن منهج السلف أو مغايرة له. كلا.

إنما الواجب أن تكون كل الدعوات إلى هذا المنهج فحسب. فاختلاف الدعاة الآن في صورة فهمهم لمنهج السلف وطرق تطبيقه، فمن هنا يزعم كل فريق الصواب والمتابعة دون غيره، مع قرب أو بعد، في صحة هذه المتابعة أو خطأها.

فالدعوات السائدة لا ينبغي أن تكون بديلاً عن منهج السلف، وإنما يجب أن تكون إليه لا إلى غيره ولا إلى نفسها، هذا هو الذي تخبطت فيه بعض الدعوات اليوم، ولم تقف على حقيقة المتابعة لهذا المنهج.

ومن جهل هذا الأصل الكبير فإن في دعوته قصور وخلل، أولاً لما أشرنا إليه، وثانياً لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا عند وقوع الاختلاف والتفرق في الأمة،

وخروج الفرق النارية كذلك أن نلزم جماعة المسلمين التي وصفها بقوله: " **الجماعة ما أنا عليه وأصحابي**".

فالمتأمل ببصيرة وفهم، يعلم جيداً الطريق الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته عند وقوع الافتراق والاختلاف. ولست إلى اليوم أدري..لماذا يختلف العاملون في الدعوة ومنهجها، وقد بينه الرسول هنا أشد بيان؟ لعلي أقول إذاً إنه اتباع الهوى، ومجاراة النفوس على التحزب البغيض، والموالاة لغير الكتاب والسنة، ولكن نحسن الظن بإخواننا إن شاء الله.

الثاني: اتباع الهوى مع بعض العلم المجاري لهذا الهوى في القلب، فهذه العقبة الخطيرة من أعظم التحديات التي تواجه الحركة الإسلامية في هذه الظروف الحرجة ، وما يقع من فصائل العمل الإسلامي خير شاهد على ما نقول، وهذا واقع مر لا يغفل عنه إلا من حبس نفسه في مكتب مكيف أو جلس يُنَّظرُ للحركة من برج عاجي!

فما زلنا نرى من أبناء الحركة الإسلامية من إذا تكلم عن جماعته التي ينتمي إليها ويدعو لها تغاضى عن جميع أخطائها ولو بُين له ذلك بالدليل من القرآن والسنة الصحيحة، وعارض نور الضُحى بنور السُّهى وظل يبرر ويبرر حتى تصل أخيراً هذا الأخطاء – أحياناً – إلى محاسن! فجماعته هي جماعة المسلمين، وهى وحدها التي على الحق وما عداها من الجماعات فهي على الباطل، وكل ما تفعله جماعته فهو شرعي وكل ما يصدر عنها فهو الصواب، وكل تاريخها أمجاد، وكل رجالها وقادتها ملائكة! فإن تحدث عن شيخه أو أميره في الجماعة، بالغ مبالغة كبيرة، فشيخه هو الأوسع علماً ، والأقوى حُجة، والأنصع دليلاً، وإن قال شيخه قولاً صار حجةً لا ينبغي أن تناقش، وإن أفتى شيخه فتوى صارت مُلزمةً لا ينبغي أن تُرد، بل وقد يوالى ويعادى إخوانه عليها ، علماً بأن الله تعالى ما تعبدنا بقول فلان أو فلان من العلماء والأئمة كلا، إنما تعبدنا بما جاء في القرآن الكريم وما صح عن رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم، وكل عالم أو إمام يؤخذ منه ويُرد عليه إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، فهو وحده الذي يؤخذ منه ولا يرد عليه "**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**" [النجم:٤،٣].

ومن أجمل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية طيب الله ثراه قوله: "وصاحبُ الهوى يُعميه الهوى ويصمّه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه ولا يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه ، ويكون مع ذلك معه شبهة دين: أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السّنة، وأنه الحق، وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه ، هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ، ليُعظم هو ويثنى عليه ، أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً، أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ، ولم يكن مجاهداً في سبيل الله فكيف إذا كان الذي يّدعى الحق والسنة هو كنظيره، ومعه حق وباطل وسنة وبدعة ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة!". وهذه العقبة الخطيرة – اتباع الهوى – تحتاج من الدعاة إلى صبر طويل وإلى جهاد مرير لهوى النفس وشهواتها والاستعلاء على رغباتها طاعة لله وطمعاً فى رضاه. وهذا لا يكون إلا بالتجرد والإخلاص والعمل ابتغاء مرضاة الله جل وعلا، بغض النظر على لسان من أُعلنت كلمةُ الحق ما دامت كلمةُ الحق ستقال، وبغض النظر عن من الذي سيرفع راية الإسلام ما دامت راية الإسلام ستظل مرفوعة خفاقة عالية تعانق كواكب الجوزاء، وبغض النظر عن مكاننا على طريق الدعوة هل هو في مكان الصدارة والقيادة أم هو في المؤخرة بين صفوف الجنود ما دام عملنا على طول الطريق خالصاً لله جل وعلا.(١)

فالمقصود: أن هذين الأمرين: الجهل واتباع الهوى هما أشد العقبات على تنوعها، أمام توحيد الصف المسلم لمواجهة الطغاة والظالمين في الداخل والخارج، **فطريق النجاة وتوحيد الأمة والدعاة يرجع بعد كل هذا إلى:**

١- رفع الجهل من النفوس والمناهج بحقيقة الدعوة وأصولها وفق الكتاب والسنة، ومتابعة السلف الصالح، ومتابعة أهل العلم في بيان ذلك.

٢- الاتفاق على أن منهج السلف هو المنهج الإسلامي الوحيد الذي يحتوى في أصوله ومبادئه، أصول توحيد الأمة والصف المسلم، كما أنه يدعى إليه لا إلى غيره.

---

(١) خواطر على طريق الدعوة.محمد حسان(١٢٧-١٢٩).

فنحن ندعوا إلى الأصيل لا إلى البديل عنه، وكما جاء:"ومن شذ شذ في النـار"، فيجـب على الأمة اتباعه دون تذبذب أو التواء.

٣- التجرد والإخلاص، وترك متابعة الأهـواء والنفـوس والمنـاهج الـتي تخـالف الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح.

٤- توحيد الهدف والغاية من كل هذه الدعوات، بأن يكون تحكيم شـريعة الله في الأرض، وتعبيد الناس لهذا الشرع الذي هو تعبيد لهم لله وحـده دون مـن سـواه مـن البشر والقوانين والطواغيت.

٥- ثم تربية الجيل المؤمن على ذلك، وكما أشرنا من قبل، عندها لن يتأخر وعد الله لنا بالنصر والتأييد والتمكين كما قـال تعـالى: "**إن تنصـروا الله ينصـركم ويثبـت أقدامكم**".

* * *

رابعاً: عودة الحكام إلى تحكيم الشريعة الإسلامية:

ومن أجل ما يؤهل الأمة الإسلامية للعودة لدفـة القيـاة والريـادة مـن جديـد أن يعود الحكام إلى الإسلام وتحكيم شريعته ومنهاجه، نعم ، يجب أن يؤمن حكامنا بأنهم يعيشون في أوطان الإسلام، ويحكمون أناساً مسلمين. ومن حق كـل قـوم أن يحكمـوا وفقـاً لعقيـدتهم، وأن تـأتي دسـاتيرهم وقـوانينهم معـبرة عـن معتقـداتهم وقـيمهم وتقاليدهم، وأن تصاغ مناهج التربية والتعلـيم وفقـاً لهـا، وأن تسـير أجهـزة الإعـلام والثقافـة في اتجـاه حمايتهـا وتثبيتهـا ونشـرها، وأن توضـع السياسـات الاقتصـادية والاجتماعية والداخلية والخارجية في إطارها، وفي خدمة أهدافها.

أما أن يدّعوا الإسلام ويرفضوا حكمه، ويعرضوا عن قرآنه وسنة نبيه، ويتنكـروا لشعائره وشرائعه، فهذا ما لا يقبله عقل، ولا يرضاه دين، ولقد بلغ تحـدي الحكـام في أكثر البلاد الإسلامية لضمائر جماهير المسـلمين حـداً لا يحتمـل، فمـنهم مـن يـرفض الإسلام جهرة منادياً بالتبعية للشـرق أو الغـرب، ولا يقبـل أن يبقـى للإسـلام مجـرد

زاوية يعبر فيها عن نفسه، حتى المسجد أصبح الدين فيه موجهاً لتأييد النظام الحاكم، ومن اجترأ على المخالفة فيا ويله ثم يا ويله!

ومنهم من يدعي الإسلام ، ولكن إسلامه من صنع عقله هو، ومن إيحاء هواه، ومن تزيين شيطانه، يأخذ من الإسلام ما يروقه، ويدع منه ما لا يعجبه، فما قاله عن الإسلام فهو الحق، وما أنكره فهو الضلال، لا يعترف بالسابقين ولا اللاحقين ولا المعاصرين، ولا يبالي أن يخالف الأمة كلها سلفاً وخلفاً، من الصحابة فمن بعدهم، ولا حاجة به لأن يرجع لأئمة الفقه وعلماء الأصول، ومفسري القرآن، وشراح الحديث، فهو الفقيه والأصولي والمفسر والمحدث والمتكلم والفيلسوف، كما قال الشاعر قديماً:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وهو هذا الواحد ولا ثاني له! حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس في حاجة إلى أن يأخذ عنه، ويتتلمذ عليه، لأنه استغنى – في زعمه – بالقرآن عنه! ونسي أنه هو المبين للقرآن، وأن القرآن نفسه يقول: ﴿**مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّـهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ [النساء: ٨٠].

ومنهم من استورد الأفكار والقوانين، ولكنه ترك للإسلام ركناً صغيراً على الرغم منه، مثل الأحوال الشخصية في القوانين، والحديث الديني في الإذاعة والتلفاز، والصفحة الدينية يوم الجمعة في الجريدة. ونحوها.

على أن يعلم أن هذا الركن إنما هو للدين وليس للإسلام، والدين هنا بمفهومه الكنسي الغربي: علاقة بين ضمير العبد وربه، أما الحياة والمجتمع فدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!

هذا هو الدين عند القوم: عقيدة بلا شريعة، ودين بلا دولة، وتعبد فردي بلا دعوة ولا جهاد، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر.

فإن طوعت لك نفسك من فوق منبرك، أو من خلال صحيفتك، أن تنكر منكراً، أو تنقد انحرافاً، أو تنصر دعوة للحق، أو تقاوم فكرة للباطل، قيل لك: قد عدوت قدرك، وتجاوزت طورك، وأدخلت الدين في السياسة، ومزجت السياسة بالدين.

وبعبارة أخرى: سيَّست الدين، وديّنت السياسة، وكان عليك أن تعلم غير ما علمك الله ورسوله وصحابته وتابعوهم بإحسان، وأسلاف الأمة وأخلافها: أن لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين!

لقد آن لحكامنا أن يعلموا أن لا خلاص لشعوبهم، ولا استقرار لمجتمعاتهم إلاّ بالإسلام ، وكما قال عمر بن الخطاب: نحن كنّا أذل قوم، فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغيره أذلّنا الله.[١]

إن عودة الحكام إلى تحكيم شريعة الله ودينه تعني أن تعود الشعوب المسلمة أولاً، ثم بقية أمم الأرض إلى نعمة الأمن والأمان، والعدل والسلام.

كما أنها تعني إعلان العبودية لله وحده دون ما سواه من المخلوقات، وأنه لا معبود بحق في الأرض والسماء إلا الله تعالى، فهو الخالق وهو كذلك صاحب الأمر والنهي، والحكم والتشريع، وهو المستحق أن تخضع له جباه العالمين من مخلوقاته، عبودية وتعظيماً وشكراً.

كما أنها تعني إعلان تحرير الإنسان من الانقياد والخضوع لغير شريعة الله المنزلة الكاملة، فلا متابعة للقوانين البشرية الجائرة، ولا متابعة لقوانين الغرب أو الشرق في كفر أو إلحاد أو علمنة أو اشتراكية أو ليبرالية، فلا حكم إلا حكم الله ورسوله، ولا تشريع إلا ما شرع الله ورسوله، ولا انقياد لأمر أو لنهي إلا من الله ورسوله، ولا تحليل ولا تحريم إلا ما جاء به الله ورسوله.

كما أن تحكيم الشريعة يعني أن ينعم الناس بالرخاء الاقتصادي، والانفتاح المادي، المتبع لمنهج الله تعالى في التحليل والتحريم، والأخذ والعطاء، والبيع والشراء،

---

(١) الصحوة الإسلامية.يوسف القرضاوي.

فلا ربى في المعاملات، ولا غش، ولا ظلم، ولا احتيال على أموال الناس، ولا أكل للأموال بالباطل، ولا تعدي على حقوق الآخرين، ولا فقر يعم البشرية بعد أن استجابت لله والرسول، وأعطت كل ذي حق حقه.

كما أنها تعني أن يأمن الناس على أموالهم وأعراضهم من السلب أو النهب أو الاعتداء على الحرمات، أو التعدي على آداب المجتمع المسلم وأخلاقه، أو انتقاص حقوق المسلمين.

* * *

خامساً: إحياء فريضة الجهاد والاستعداد له:

[١]حقيقة الجهاد:

ومن الواجب على الأمة الإسلامية، إذا تأهلت لمهمة الخلافة والقيادة أن تعمل على إيحاء روح الجهاد والفروسية في قلوب الشباب المسلم، وإيقاظ هذه الفريضة في قلوب الغافلين، إحياءها بمفهومها الشرعي الصحيح الشامل، الذي يبدأ من طلب العلم النافع للمسلمين بدأً من طلب العلوم الشرعية، ثم بكل علم نافع في شتى مجالات الحياة البشرية، ثم الجهاد ببذل المال والصدقات والزكوات في سبيل الله تعالى، وإنشاء كل عمل يخدم هذه الأمة ويؤهلها لمرحلة القيادة والخلافة الراشدة، ثم الاستعداد النفسي والبدني للجهاد في سبيل الله، في سبيل إعلاء كلمة التوحيد والإسلام، والاستعداد العسكري المسلح لخوض المعارك ، وفتح البلاد بنور الإسلام وعدله وسلامه.

فالجهاد في سبيل الله لا يعني سفك الدماء، ولا قتل الأبرياء بغير حق كما فهم بعض الناس، وأساؤوا بفهمهم هذا إلى الإسلام نفسه، مما أتاح الفرصة أمام أعداء الله تعالى والحاقدين من المنافقين والعلمانيين ومن سار على طريقتهم باتهام الإسلام وأهله وفريضة الجهاد بأنها نوع من الإرهاب والتخويف. كلا، إنما حقيقة الجهاد إزاحة الظالمين والطغاة من أن يقفوا في وجه هذه الدعوة الإسلامية الخالدة، وأن يمنعوا أمة الهدى والنور من تبليغ هذه الرسالة للناس وإسماعهم لما فيها من الحق

والعدل والرحمة، وفيها من معاني التحرير الرباني للبشرية من ظلم الظالمين، ومن جور الحكام والساسة الذين طالما قهروا الناس وأخرسوا ألسنتهم ، وكمموا أفواههم عن قول كلمة الحق، ونصرة المظلوم، ومن أن تستنشق نسائم الإيمان والقرآن، والعدل والرحمة، والمساواة بين العباد في تكاليف العبودية لله وحده.

وإن للجهاد في الإسلام لشرف ومكانة يوم أن تخلت عنها الأمة الإسلامية ذلت وضعفت وهانت، ويوم أن كان فيهم العدل والإسلام، نشروا التوحيد وعقيدته الصافية، وعلموا الدنيا مباديء الهدى ، وأقاموا دوله على أركان القوة والإيمان بالله تعالى، ومكارم الأخلاق التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد تقدم الصحابة والتابعون بالجهاد، ففتحوا به بلاد الدنيا شرقاً وغرباً حتى وصلوا إلى الصين، ودخلوا بلاد الأندلس، ودخلوا بلاد السند والهند، ومع ذلك كانوا أحرص الناس على هداية الناس إلى نور الإسلام ، لقد فتح الله عليهم خيرات الأرض وكنوزها ، يوم أن كانوا أعزة بهذا الدين، وصدق القائل:

خلق الله للجهاد رجالا ورجالاً لقصعة وثريد

[٢] فضل الجهاد في الكتاب والسنة والدعوة إليه:

والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية فيها دعوة جليلة لبذل الأموال والأنفس للجهاد في سبيل الله تعالى: **فمن القرآن الكريم قوله تعالى:**

قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ، وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران : ١٥٦-١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩– ١٧٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [سورة النساء: ٧١ – ٧٨].

ومنها آيات كثيرة جعلها الله تعالى في سورة تحث على إحياء الجهاد في نفوس المؤمنين، والصبر والثبات في قتال الكافرين ومن ذلك في سورة الأنفال قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾. وهذه سورة التوبة سورة الجهاد والبراءة من الكافرين والمنافقين تحث أهل الإيمان على الجهاد وتحذر من الإخلاد إلى زينة الحياة الدنيا كما في قول الله تبارك وتعالى في قتال المشركين: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ،وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾. والقرآن فيه الكثير من مثل هذه الآيات الجليلة والمتأمل لسورة البقرة وآل عمران والأنفال والتوبة ومحمد والأحزاب والفتح والصف وغيرها، يرى مدى اهتمام القرآن بإحياء هذه الفريضة، التي هي وسيلة كبيرة إلى تعبيد الناس لخالقهم سبحانه وتعالى.

أما الأحاديث النبوية في الجهاد فهي كثيرة ومستفيضة في هذا الباب، وإليك بعض الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم بأن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل**" رواه البخاري ومسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**والذي نفسي بيده، لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة، واللون لون الدم، والريح ريح المسك**". رواه البخاري ومسلم. وعن أنس رضي الله عنه قال: "**غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين: ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنا نرى، أو نظن: أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه". إلى آخر الآية**". رواه البخاري

وعن أم حارثة بن سراقة أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا نبي الله ، ألا تحدثني عن حارثة – وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب – فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك، اجتهدت عليه في البكاء؟ قال: "**يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى** ". أخرجه البخاري. وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**واعلموا أن الجنة تحت**

ظلال السيوف". أخرجه الشيخان وأبو داود. وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا**". رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**من احتبس فرسا في سبيل الله، إيمانا بالله، وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة**". رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال " **لا تستطيعونه قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: لا تستطيعونه. ثم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة ، حتى يرجع المجاهد** ". أخرجه الستة إلا أبو داود. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنهُما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**". رَوَاهُ التِّرمِذِيّ.

وعن سهل بن حُنيف رَضِيَ اللهُ عَنهُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**". رواه الخمسة إلا البخاري. وعن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من أنفق نفقة في سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف**". رواه الترمذي وحسنه والنسائي.

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "**لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ أُغْزُوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة**". رواه الترمذي. وعن المقدامِ بنِ معدِ يكربَ قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "**للشَّهيدُ عندَ اللهِ ستُ خصالٍ يغفرُ لهُ في أوَّلِ دُفعة ويُرى مقعدهُ من الجنَّة ويجارُ من عذابِ القبرِ ويأمنُ من الفزعِ الأكبرِ ويوضعُ على رأسهِ تاجُ الوقارِ الياقُوتةُ منها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها ويزوَّجُ اثنتينِ**

وسبعينَ زوجةً من الحورِ العينِ ويشفَّعُ في سبعينَ من أقربائــه". رواه الترمـذي وابـن ماجـه. وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم: "**مـن طلـب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه**" . رَوَاهُ مُسـلِمٌ. وعـن جَـابِرَ بْـنَ عِبْـدِ اللهِ رضـي الله تعالى عنه يقُولُ : لَمَّا قُتِلَ عِبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرو بْـنِ حَـرَامٍ ، يَـوْمَ أُحُـدٍ، قـال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: "**يَا جَابِرُ! أَلاَ أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ لأَبِيكَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَداً إلاَ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحاً، فَقَالَ: يَا عَبْدي! تَمَنَّ عَلَـيَّ أُعْطِـكَ، قَالَ: يَا رَبِّ! تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيةً، قَالَ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِليْها لا يَرْجَعُونَ قَالَ: يَـا رَبِّ! فَأَبْلغْ مَنْ ورائي، فأَنْزلَ اللهِ عزَّ وَجَلَّ هَذه الآيَةَ: "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذيْنَ قُتلُوا في سَبيلِ الله أَمْوَاتاً.. الآيَةَ كُلَّهاَ**". رواه ابن ماجة.

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم: "**إذا تبـايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا يترعـه حتى ترجعوا إلى دينكم**". رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، قال عمير بن الحمام: بخ بخ، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ما يحملك على قولك بخ بخ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجـاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتـل حـتى قتل**". رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنـه قـال: "**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفـاق**". رواه مسـلم وأبو داود.

[٣] أنواع الجهاد وصوره:

أما بالنسبة لأنواع الجهاد عموماً فهو ينقسم إلى قسـمين: جهـاد الطلـب، وجهـاد الدفع، أما جهاد الطلب فهو طلب المشركين، وجهاد الدفع: هو دفع المشـركين، يعـني

جهاد الدفع أن يغزوا المشركون المسلمين في بلادهم، وأما جهاد الطلب فخلافه، ففي حديث بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث سريةً وأمَّر عليها أميراً فأوصاه بخاصة نفسه ومن معه بأن يتقوا الله عز وجل إلى آخره، فهذا من جهاد الطلب.

لكن متى يشرع جهاد الطلب ؟

نقول بأن جهاد الطلب يشرع إذا كان هناك من يقف أمام الدعوة إلى الله عز وجل، ويحول دون تبليغ الإسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث من يبلغ المسلمين فإذا كان هناك أحد يمتنع من الإسلام ونحو ذلك أو يكون حائلاً دون تبليغ دعوة الإسلام فإنه يُجَاهَد في هذه الحالة، وهذا هو جهاد الطلب، وقبل أن يُجَاهد فهو يخير بين أمور ثلاثة: إما القتال وإما الإسلام وإما الجزية.

وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد: أن الجهاد أربع مراتب جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات.

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان .

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات فالجهاد الأول يكون بعده اليقين والثاني يكون بعده الصبر. قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة ٢٤]، فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

مراتب جهاد الكفار والمنافقين: وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان.

جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات: وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب الأولى : باليد إذا قدر فإن عجز انتقل إلى اللسان فإن عجز جاهد بقلبه .فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد و"من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق".رواه مسلم.

هذه بعض معالم الجهاد في سبيل الله تعالى، ولكن الجهاد القتالي هذا مع العدو قد يفرض أحياناً، لأنهم دخلوا ديار المسلمين عنوة، واقتحموا حرماتهم وأعراضهم، واستحلوا دمائهم وأموالهم ، فهذا النوع من الجهاد لا حاجة فيه لأمير ولا أن يستأذن فيه لأنه صار فرض عين على كل المسلمين في ذلك البلد.أما الخروج للجهاد والفتح والطلب فله شأن آخر، ويكون على الأمة الإسلامية عندما تؤهل للخلافة الراشدة أو الإمارة المسلمة ، وتتملك الأمة زمام القيادة والحركة والدعوة، فهذا له شروطه وضوابطه، التي ينبغي الوقوف عندها والفهم لها، حتى لا نخلط المسائل ونأتي بالضرر للأمة من حيث نريد النفع لها.

ومع ذلك: يجب أن نتصدى اليوم بما نستطيعه من وسائل المجاهدة لأعداء الله في كل ديار الإسلام: ببيان حقيقة منهج الإسلام الحنيف، وقوة عقيدته وأخلاقه

وتشريعاته، وصلاحيتها وسموها في قيادة الناس والعالم كله من جديد، وأن نتصدى لهم بنشر العلم الشرعي، وفق منهج الكتاب والسنة الصحيحة ومنهج السلف الصالح عليهم رضوان الله تعالى، وجمع الناس على ذلك.

وأن نعنى بتربية الشباب المسلم على الفروسية والاستعداد للفتح الإسلامي والجهاد في سبيل الله تعالى.

وأن نرد شكوكهم وأباطيلهم التي يريدون بها، زعزعة الإسلام والشريعة في قلوب المسلمين، وأن نستخدم كل متاح ومباح وفق منهج الله تعالى، في نشر دعوة الإسلام، بمفهومها الصحيح الشمولي المتوازن، وأن نصبر على كيد الكافرين والمنافقين حتى يأتي وعد الله لنا بالنصر والتمكين: **"كتب الله لأغلبن أنا ورسلي "**، **"وإن جندنا لهم الغالبون"**.

هذه أهم المعالم والمهمات التي نحسب أنها من الأهمية اليوم، في حياة المسيرة الدعوية والصحوة بمكان، والتي ينبغي أن نلتفت إليها ونقف معها طويلاً، في سبيل بناء دعوة إسلامية صحيحة، وبناء جيل التمكين المسلم، الذي يفتح الله تعالى على يديه النصر والتمكين لهذه الأمة، نسأل الله تعالى أن يهدينا سواء السبيل. والله المستعان.

* * *

المراجع والمصادر

١) القرآن الكريم.

٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

٣) في ظلال القرآن: للأستاذ سيد قطب.

٤) الإيمان وأركانه: لنعيم ياسين.

٥) العقيدة الإسلامية: للشيخ أحمد آل سبالك.

٦) فتح الباري: للعلامة ابن حجر العسقلاني.

٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: للأستاذ أبي الحسن الندوي.

٨) الرحيق المختوم: لصفي الرحمن المباركفوري.

٩) الزهد: لوكيع بن الجراح.

١٠) الشريعة: للآجري.

١١) طبقات الحنابلة: لابن أبي يعلى.

١٢) حجة الله البالغة: للدهلوي.

١٣) إعلام الموقعين: لابن القيم.

١٤) مجموع الفتاوى: لابن تيمية شيخ الإسلام.

١٥) منهج التلقي والاستدلال: لحمدي عبد الله.

١٦) الاعتصام: لأبي إسحاق الشاطبي.

١٧) الصواعق المرسلة: لابن القيم.

١٨) منهاج السنة: لابن تيمية.

١٩) الأم: للإمام الشافعي.

٢٠) السلفية وقضايا العصر: الدكتور عبد الرحمن الزنيدي.

٢١) مجموعة محاضرات السلفية: للشيخ محمد إسماعيل المقدم.

٢٢) إسلامنا: لسيد سابق.

٢٣) كتب الشيعة: الأنوار النعمانية: نعمة الله الجزائري.

٢٤) كتب الشيعة: الكافي: للكليني.

٢٥) كتب الشيعة: مرآة العقول: محمد باقر المجلسي.

٢٦) كتب الشيعة: كشف الأسرار: للخميني.

٢٧) الفوائد الموضوعة: لمرعي الكرمي.

٢٨) حزب الله: لسيد العفاني.

٢٩) الموافقات: لأبي إسحاق الشاطبي.

٣٠) العلم ضرورة شرعية: ناصر العمر.

٣١) عناصر القوة في الإسلام: لسيد سابق.

٣٢) البداية والنهاية: للعلامة ابن كثير الدمشقي.

٣٣) الإسلام والخلافة: لعلي الخربوطلي.

٣٤) العلمانية: لسفر الحوالي.

٣٥) العالم الإسلامي والمكائد الدولية: لفتحي يكن.

٣٦) مشكلات الشباب: العلامة ابن عثيمين.

٣٧) إتمام الوفاء: للخضري.

٣٨) نظرات في رسالة التعاليم: للخطيب.

٣٩) فقه النصر والتمكين: للصلابي.

٤٠) التصفية والتربية: العلامة الألباني.

٤١) علو الهمة: للشيخ محمد إسماعيل المقدم.

٤٢) خواطر على طريق الدعوة: لمحمد حسان.

٤٣) الصحوة الإسلامية: ليوسف القرضاوي.

٤٤) زاد المعاد: لابن القيم.

٤٥) مجالات الدعوة في القرآن وأصولها: لعاطف الفيومي.

***

فهرس الكتاب

الفهرس

***

صدر للشيخ

كتاب

مجالات الدعوة إلى القرآن وأصولها

من إصدارات

مكتبة أولاد الشيخ للتراث بالهرم